ألف ميل من الخيبة

عزيزي القارئ

كل شيء في الذاكرة سيرحل...

في وقت ما سنصدق هذه الحقيقة،

الحبر هو الشيء الوحيد الذي سيحفظ المواقف و المشاعر و الدموع و الحب كذلك

لن تكون هذه النصوص فريدة من نوعها و لن تصادف اي مفاجئة بلاغية أو أدبية خلال قراءتك لهذا النص القديم من أرشيف ذاكرة أحد المجانين و هو كغيرهِ من مجانين هذه الدنيا، لم يترك سوى بعض المشاعر المختلطة و المبعثرة و الغير مفهومة،

سنمر جميعاً خلال مسيرنا في هذه الحياة بصعوبات قد نظن بأننا الوحيديين الذين تعرضوا لها...

هناك الكثير قد عانى و الكثير مازال يعاني و هناك من سيعاني لكن وقته لم يحن بعد،

قراءة ممتعة أحبائي

حقوق النشر © 2025

هذا الكتاب من تأليف: عبد المجيد العلي

جميع الحقوق محفوظة.

لا يجوز نسخ أو إعادة نشر أو توزيع أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت بدون إذن خطي من المؤلف.

ثلاث سنين مضت، و كأنها البارحة يا أبي... أردد جملتك الشهيرة دائماً و بشغف بائس تلك الجملة التي تقول "قد آن للطيور المهاجرة أن تعود إلى أعشاشها "لقد ذهبت تلك الطيور يا والدي و لم تعد، و بقيت الأعشاش خاوية تنتظر أصوات أطياف الراحلين لتسكنها و تعيد لها الحياة.

أمي تريدني طيراً يا أبي كتلك الطيور التي لن تعود ابداً، في كل مكان تجالسني فيه، لا تنفك تقنعني بأمر الرحيل و السفر، أحيانا تريد مني مغادرة البلاد نحو بلاد أخرى، و في بعض المرات تريد مني الذهاب لعمي أبا نجوى المقيم في مدينة حلب، تريد مني حسم أحد أمرين "الرحيل خارج البلاد أو الزواج من ابنة عمي نجوي" ، هي دائماً تثير شجون قلبي في الثانية، لطالما شعرت بأن أمي تعلم كم أحبها، لكن أمي لا تعلم أن سنين الغياب التي أبعدت نجوى عن هذه البلاد قد غيرت ما في قلبها، و في إحدى المرات و اثناء جلوسي في الزاوية التي كنت أجالس أبي فيها في البستان، كانت أمي قد أحضرت إبريق الشاي و أتت إلي، كانت الشمس قد شارفت على المغيب، و من نفس الجهة التي قدمت منها أمي إلي كانت قد أتت نسمة باردة و لطيفة، وضعت امي ابريق الشاي على العشب على أرض مستوية و بدأت بصب الشاي، أعطتني كوب و أخذت هي كوباً، بادرت بالحديث وقلت لها مبتسماً، ماذا لديك يا أمي هل هناك شيء غير طلبك الذي تعيدينه في العام ثلاث مائة و خمس و ستون مرة، ضحكت قليلاً ثم قالت "أريد أن تنجو و تشق طريقك بعيداً عن هذا الزحام، لقد تلوث كل شيء هنا و لن تجد شيئاً نظيفا، غادر يا بني إلى عمك فهو يعلم كيف سيتدبر الأمر، قلت لها أي أمر" السفر أم الزواج "ثم تبسمت"....

الاثنان يا بني او أحدهما، لقد تحدثت معك بالأمر و لم يبدي اعتراضاً، و كان حديثه يشير للقبول، اذهب فانا لن أمل من هذا الحديث.

احتسيت رشفةً من الشاي، ثم قلت لها :لقد اتخذت قراري يا أمي ففي هذه البلاد لم يعد هناك ما يستحق الحياة، كل شيء تغير، سأذهب و أتزوج لعل زواجي من الفتاة التي ترغبين يعيد لي بهجة الحياة، ضحكت قليلاً ثم قالت :الفتاة التي أرغب بها عروس لك أم الفتاة التي تحبها و التي يشغل إسمها حيزاً كبيرا من اوراق مكتبك.

يبدو أن الأمر وصل بك يا أمي إلى مكتبتي، حسناً يا أمي بإمكانك أن تجهزي لي أمتعتي، و سوف أسافر إلى حلب بعد غَدٍ إن شاء الله، تركت أمي مجالستي و هي مسرعة نحو المنزل قاصدة غرفتي لتجهيز أمتعتي، يبدو أنها نسيت أني قلت لها بعد غد ، لا أعلم ماذا يحدث لقلوب الأمهات في هذه السنوات فأنا لا أسمع إلا بالتي تريد أم يغادرها ابنها و يتركها، هل يمكن للحرب ان تفعل كل هذا،

لم يكن الليل طويلاً كعادته، هو كذلك يريدني أن اذهب إليها و يريد أن يعجل في هذا، في اليوم التالي ودعت صديقي ماهر و عصام، هما كذلك يريدان الرحيل لكن بوجهة مختلفة و برحلة أطول.

أنهيت عملي في البقالة التي أعمل بها و أخبرت صاحبها الحاج محمود بأني لن أعود وطلبت منه إعطاء ما بقي لي من أجر لأمي.

عدت للمنزل في المساء، اغتسلت، كانت قد انهت اعداد العشاء، تناولت العشاء الأخير معها، ثم قلت لها كيف ستطيقين رحيلي يا أمي

عندما رأيت الحُزن في عينيها، قلت لها "لن ارحل"، كفكفت من حزنها ثم قالت "لن أسامحك" فهذه اللحظة هي من أسعد وأجمل اللحظات التي يمكن أن أكون بها آلا يكفيني بأني سأكون مطمئنة عليك بعيداً عن كل هذا الذي يحدث حولنا فكل يوم هناك حملة للتجنيد الإجباري، غادر يا بني و يكفيني اتصالك بين الحين و الآخر، تناولت عشائي معها و من ثم شربنا الشاي سوياً، لأذهب إلى غرفتي جالساً لوحدي كعادتي، في الحقيقة لم أكن لوحدي، لقد كنت أجالس طيف نجوى الذي يراودني في كل لحظة أدخل بها إلى الغرفة.

جلست على طاولتي و أخذت ورقة وكتبت فيها رسالتي الأخيرة لأمي بخط يدي،،، ستقرأين هذه الرسالة لحظة مغادرتي المنزل، لأنك ستقومين ب المجيء إلى هنا لعلك تجدي ريحي ستقلبين دفاتري و رسائلي و تشتمين كل حرف منها، ما دامت حروفي هنا يا أمي فأنا لازلت هنا، لا يمكن أن أرحل و إن رحل جسدي فروحي لازلت هنا تدور في فلك هذا المنزل تداعب يداكي، لا تحزني، لن أغادر هذه البلاد كما تريدين إنما أنا ذاهب لأشد وثاق هذا الخيط الصغير الذي يربطني أو لأقطعه و من ثم سأعود، تذكري دائماً أني أحبك يا أمي، ستذهب هذه الأحزان المؤقتة و ستعود السعادة لهذا المنزل يوما و سيجتمع شملنا قريباً كلنا، أنا و أنتِ و نجوى و أخي أحمد و عائلة عمي، لا أريد أم تذرفي دمعة واحدة، كل قطرة ستستقط من عينيكي سأشعر بها و أنتِ تعلمين كم تؤلمني رؤية دموعك.

ابنكِ البار يوسف....

ايقظتني أمي في تمام الحادية عشر صباحا، و قالت لم أرغب في ايقاظك في وقت مبكر فأنت بحاجة للراحة، نهضت و اغتسلت ثم تناولت فطوري،

و من ثم أتصلت بعدة شركات للسفر، كلهم لم يكن لديهم رحلات في الظهيرة ، حجزت في احداها و قال لي ان رحلة الشركة الوحيدة ستنطلق الساعة الثامنة مساءاً، قمت بتثبيت الحجز، ذهبت إلى غرفتي لأرى ماذا حزمت لي أمي من امتعة، يبدو أن أمي ظنت أني ذاهب من دون عودة، لأنها قد وضعت كل ثيابي في حقيبتين، أخذت الحقيبة التي توضع على الظهر فوضعت بها ما يكفيني لهذه الرحلة القصيرة، ثم ذهبت لأجلس قليلاً في البستان تحت شجرة التوت، لعلي أرى طيف لذاك الرجل الذي ذهب و لم يودعني، و بين هذا و ذاك رحت أغط في نوم عميق، لانهض على صوت أمي و هي تقول أن الساعة قد تجاوزت السادسة، ذهبت لغرفتي لأخذ حقيبتي، و خرجت منها، قبلت رأس أمي و اوصيتها خيراً بنفسها، نظرت للحقيبة ثم قالت كما تريد. الرحلة قصيرة يا أمي و لا تحتاج لكل ذاك،، ستجدين رسالة تركتها لك على الطاولة، اردت أن أخبرك بهذا كي لا يذهب ظنك لبعيد، فانتِ تخافين من كل شيء، غادرت باب البيت و أمي لا زالت تقف بجانبه حتى بدأ كل منا يختفي شيئا فشيئا، توقفت قليلا على الرصيف لعلي أجد سيارة نقل عمومية تقلني إلى المحطة، توقفت إحدى السيارات بجانبي ثم قام السائق بفتح الزجاج الذي يقابلني، سألني : إلى أين أخي

-إلى المحطة العامة للحافلات، كم ستأخذ مني

أشار بيده و لم افهم ما كان يعني، قلت له هل تقصد عشرون ليرة، أجابني بنعم، صعدت للسيارة و جلست بجانبه،

كنت خائفا كثيراً، لم أكن أعلم مما أخاف أو ما هو سبب ذلك الخوف، قد تكون كلمات أمي الأخيرة التي تم تقلها بلسانها هي التي بثت هذا الخوف في قلبي، حملت قلبي على الصبر و جاهدت نفسي كي لا أضعف، لقد كنت مجبرا يا أمي، لقد كان علي أن أضع حداً لكل مايحدث، أعلم أن كل ما سأصادفه لن يكون جميلا، لكن هذا أمرا لابد منه، علي أن أتبع قدري في الذي يقودني لنجوى، نعم علي أن أتبعه، واضعاً كل شيء يعيق ما أصبو إليه على أطراف الذاكرة و تأكدي يا أمي بأنني لن ابتعد كثيراً، سأكون قريباً منك دائما، وقفت عند بوابة أحد المكاتب الخاصة بالسفر بعد أن تجاوزت باب المحطة الحديدي، دخلت إلى المكتب وجدت شاباً في مقتبل العمر جالس خلف مكتبه، رحب بي بعد أن القيت عليه السلام ثم طلب لي قهوة، أخبرته بأني قد اتصلت به في الظهيرة وباني قد قمت بتثبيت الحجز و أعطيته بطاقتي الشخصية ، كان ودوداً للغاية، فتح دفتر قطع التذاكر و اعطاني تذكرة و قال لي ستمضى هذه الحافلة بعد نصف ساعة، شكرته ثم طلبت منه أن أجلس في الخارج، كان هناك مجموعة من المقاعد الحديدية في الخارج في منطقة جانبية، جلست على أحد المقاعد و بدأت بتصفح رسائلي، ارسلت رسالة لأمي أطمئنها اني وصلت المحطة، لكني لم استطع ارسال اية رسالة لعمي أبا نجوى لأني أعلم بأنه سيمنعني و كذلك لأخي أحمد الذي يقيم مع عائلته في العاصمة

كان هناك رجل يجلس بجانبي قد تجاوز الخمسين من عمره، يحتسي فنجانا من الشاي، لقد بدت على ملامحه ندبات العمر و كأنه قد غُمس بنهر من الحزن، كان ينظر إلي بين الحين و الأخر، أحن إلى أبي كلما رأيت رجلاً كبيراً و كأنني أراه به، لم تكن المحطة تعج بالمسافرين كعادتها، فالبلاد تمر بفترة حرب عصيبة جعلت من الجميع جثث حية، لا تتجرأ على الخروج من منازلها ففي هذه الأوقات لا يخرج أحداً من بيته مسافراً إلا لضرورة كضرورتي الغرامية هذه التي أعيشها مع روح قد لا تشعر بي و لا أعلم إن كانت تكن لي إلى الآن ما أكن لها،

لقد حان موعد إنطلاق الحافلة، ذهبت إلى المكتب للتأكد من توقيت الرحلة.

دخلت إلى مكتب الحجز سألت موظف الحجوزات عن وقت انطلاق الحافلة.

قال لي الشاب "خمسة دقائق و ستكون هنا" و ما إن خرجت من باب المكتب حتى حطت الحافلة في موقف الحافلات لقد كانت تحمل اسم الشركة، ذهبت إلى المكان الذي تركت به أمتعتي لأخذها و أمضي نحو الحافلة.

صعدت إلى الحافلة بعد أودعت أمتعتي مع معاون سائق الحافلة الذي سيضعها بدوره في الصندوق الجانبي للحافلة، نظرت للتذكرة لأرى رقم المقعد الذي سأجلس عليه، لقد كان رقمه عشرون، لم تكن مصادفة فأنا لا اومن بالصدف، فأنا يوم ميلادي يأتي في العشرين من الشهر الخامس و رقم المقعد يحمل ذات الرقم، و حساب سيارة الأجرة كان عشرون ليرة، كيف لهذه الصدف أن تأتي مجتمعة سوياً في ساعات قليلة، هل هذا نذير شؤم أم بشارة خير، لا أعلم، جلست في مقعدي و من ثم وضعت سماعة الهاتف في أذني مستمعاً لسورة يوسف بصوت الشيخ ناصر القطامي، لقد تأخرت الحافلة في الانطلاق، يبدو أن هناك مسافر ما يتجول في الانحاء، لقد كان نفسه ذلك الرجل الذي كان يجلس بجانبي، و بعد مضي عشر دقائق انطلقت الحافلة قاطعة شوارع المدينة المظلمة و التي تعاني من شح في إمدادات الطاقة الكهربائية، يبدو أن هذه المدينة لا ينقصها الكثير كي تصبح أول مدينة تدخل باب مدن العالم الرابع و ما أعتقده أنها لن تجد منافساً لها في ذلك العالم، لقد اعتادت أن تكون وحيدة و مظلمة ك حال شعبها المقهور،

ذاك الشعب الذي لم يذق طعم الحياة منذ انهيار الخلافة العباسية، مدة كافية لقهر مدينة و شعب و إذلاله، تجاوزت الحافلة المدينة ماضية نحو الغرب بإتجاه مدينة "تل تمر" التي تقع غرب

مدينة الحسكة بمسافة تتجاوز الأربعون كيلومتر، شعرت بتعب و كان لابد من أن اقضي بعض الوقت و انا مغمض عيناي و مستمعاً لجزء صغير من القرءان الكريم أزيح به شيئا من ذلك الثقل الملقى على كاهل قلبي.

نهضت بعد ساعتين تقريبا، بعد محاولات كثيرة مني لإكمال نومي لكن صوت قهقهات الضحك التي تجاورني لم تساعدني على ذلك.

نظرت لأعلم ما قصة هذا الضحك الهستيري، لقد كان الجميع مسترخياً يشاهد فيلماً مصريا كوميدي نوعا ما، الحياة مستمرة و لا يمكن للحرب و للحال التي وصلنا إليها القضاء على الحال الذي وصل إليه شعب هذه المدينة، هذه النوعية من الشعوب هي التي تناسب هذا الشرق الحزين و هي نفسها التي تناسب الفئات التي تتحكم بهذه البلاد، اذا كان الخبز متوفراً لشعوب الشرق فعليك أن تكون حذراً، و إن لم يكن متوفراً فعليك أن تعطيهم الخبز عن طريق التلفاز و بالتالي لا خوف عليك آيها الحاكم، تنعم يا عزيزي و نم قرير العين فعيون الأرامل و الجوعى لا ترى شيئاً في السماء سواك.

لم تكن سرعة الحافلة كالمعتاد، كان السائق يُسيرها ببطئ، على الرغم من أنه يجب أن يكون مسرعاً، تفاديا للمتاعب التي قد تواجهنا، هناك حوادث كثيرة سمعت عنها عن حافلات تم إيقافها من مجهولين و سلب الركب كل ما في جعبتهم، توقفت الرحلات لفترة جيدة حتى تم تأمين الطريق و قد أخذت شركات النقل ضمانات من الحكومة بذلك، أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً، و صراحة لم يكن هناك ما يعكر صفوي سوى

موضوع عدم ملئ بطارية الهاتف بالكهرباء، نعم لأنني عندما غادرت المنزل كانت التيار الكهربائي مقطوعاً طوال ذلك اليوم، أطفأت هاتفي الذي كاد يفرغ من الكهرباء و حاولت التفكير ملياً في هذه الخطوة التي أقدمت عليها، عندما نبدأ في أمر ما سنبدأ نخاف، لأننا قد نخشى فشله، لم أكن أستطيع منع قلبي من الحب و كذلك من الشوق و ما أقدمت عليه الآن ما هَو إلا نتيجة حتمية لكل ما ملئ قلبي، قد نرتكب بعض الأمور الغير منطقية من ناحية العقل في حياتنا لكننا و مع ذلك نستمر في فعلها، محاولين بذلك تبرير خطأ قديم أو زلة لا تغتفر، لم تكن تلك النبوءات التي تحدث بها أمي عن لقائي نجوى محض خيالات، أنا مؤمن ب أحاديث أمي و إن كانت أحيانا غير منطقية، لن أنسى ما قالت لي ذات مرة، "ستلتقي بها لكن عليك أن تتعب قليلاً فالمسافات قد تلغي قدسية ما في القلوب و إن دنوا القلوب من بعضها سيزيح كل الخيالات المخيفة، تقدم و لا تخف فأنا لا أظن لك سوى الخير".

أشغلت نفسي في ذاك الفيلم الذي يشاهده البعض، و القيت نظرة للخلف، لقد كان الجميع نائماً، سوى ذلك الرجل الذي كان بجانبي في المحطة، كان مرتابا يحدق في الزجاج كثيراً

أشغلت نفسي مرة أخرى في التلفاز الذي لا أراه منه شيئاً و بالكاد أستطيع تمييز الأصوات، كان الطقس بارداً، في هذا الوقت من العام

ينتشر البرد في هذه الرقعة الجغرافية من العالم دون أن تلمس هذه الأرض العطشى قطرة ماء.

هي سنين عجاف لم يحصد أهلها من أرضهم شيئاً في سنونها السمان و التي كانت تفيض عليهم بالخيرات، هل تستحق هذه البلاد ما يحدث لها، قد أكون متجنياً في أحيان كثيرة على أرضي و من عاش عليها و متجنياً على نفسي، و مع ذلك فأنا حزين كثيراً على ما آل إليه الحال، و كيف لي أن لا أكون حزيناً و انا اقطع هذه المسافات لأجل فتاة، لا أعلم إن كان قلبها لازال حياً بي أم انها أماتت كل صلاته بي.

قاطع أفكاري ذاك الرجل الذي كان معي في المحطة، بعد أن قال "أرغب في الجلوس بجانبك ان لم تمانع، فانا كما ترى رجلٌ مُسن و أرغب في الحديث، علينا أن نتحدث و نتحدث فالحياة لن تقف عند أحد، رحبت به و أزلت كيساً كان موجود به بعض البسكويت و وضعته في الجيب الموجود أمامي.

بدأ بالحديث و قال أنا أدعى" أبا خالد "من منطقة الصالحية في مدينة الحسكة، أجبته و أنا اقدم له بعض البسكويت "اهلا بك عم" خذ و تناول بعض البسكويت فالحديث يحتاج لشيء كهذه الاشياء، ضحك قليلاً ثم قال من أين أنت، تمهلت قليلا في الإجابة ثم قلت له أنا اسمي يوسف من المدينة من منطقة "النشوة" رحب بي و قال بأن له عدة أصدقاء من تلك المنطقة،

ثم قال لابد أنك تدرس في جامعة حلب و هذا يحتم عليك السفر اليها في هذا الوقت، عليك بالعلم يا يوسف فقد خسر كثيراً من لم تكن لديه شهادة تعينه على نوائب الدهر.

تبسمت ثم قلت له لا تخف فأنا لدي شهادة جامعية و قد انهيت دراستي هذا العام، لكنها و للأسف أعانت الدهر و نوائبه علي، يا عم عن ماذا تحدثني و عن أي نوائب، قد نغفل عن أمور مصيرية و نحن ندرس في الجامعة، أمور قد تكون مفصلية من عمرنا، لن أُخطئك و أقول بأنني علي حق فكل إنسان له في هذه الحياة نظرة، قد تصيب وقد تخطئ، لكن ما أُريد أن أقوله لك، هناك خطأ ما في هذه الحياة، خطأ لا يمكن لنا أن نصلحه و لا يمكن للزمن نفسه إصلاحه، سنبقى ندور في فلك هذا الخطأ حتى اللحظة التي نُلقى بها بداخل حفرة صغيرة، و في تلك اللحظة سوف يتضح لنا كل شيء، لكنني على أية حال أنا لست ذاهبا لأجل الدراسة، إنما زيارة لعمي و عائلته فأنا لم أرهم منذ مدة طويلة.

أجابني و هو يحاول الدفاع عن رأيه، لا تجعل التشاؤم يسيطر عليك بهذه الطريقة، فأنت لازلت صغيراً، سترى الكثير و ستتعلم الكثير، لا تستعجل على ما هو قادم، الله هَو الوحيد الذي يعلم ما في الغيب، و جُل ما نتمناه الآن هو أن تمر هذه الرحلة بسلام دون أية مشاكل،

- و أنا أتمنى ذلك يا عم.

هل لي أن اسألك إن لم تمانع يا عم "ما هو سبب رحلتك، بعد إن علمت سبب رحلتي"

أجابني " إذاً واحدة بواحدة ثم ضحك قليلاً ، ثم قال: لدي ابن من عمرك يدرس في حلب في كلية الهندسة الكهربائية، اخباره منقطعة منذ مدة و هاتفه مقفل، و قد أُنبأت بأنه قد تم اعتقاله

و لا أعلم ان كانت هذه الاشاعة صادقة ام كاذبة، و ها أنا ذا أجر كبري في العمر معي خلف هذا الفتى و لا أعلم ما الذي تخبئه الأقدار لي و له.

بدت على وجه أبا خالد علامات الأسي نفسها تلك التي رأيتها في المحطة، حزنت عليه كثيراً و خصوصا أني عندما رأيته تذكرت والدي ، يا لعظمة الأب، هناك الكثير و الكثير من الناس لا يعلمون قدر الأب و تراهم يفضلون أمهاتهم عليهم.

حاولت مواساته، مذكراً إياه بكلامه لي عن التشاؤم، "لا نملك سوى الصبر يا عماه و إن نفد فعلينا أن نصبر أنفسنا" الحياة ليست مكاناً أمناً، َعلينا أن نكون حذرين منها، كحذر الراعي من الذئب خوفاً على قطيعه.

ساد الصمت قليلاً تلك الجلسة البائسة، و ما لبث ابا خالد دقائق حتى غط في نوم عميق.

أشحت ببصري نحو زجاج النافذة الذي بدأ تتشكل عليه طبقة لا أعلم ماذا يسميها الفيزيائيون لكن سأسميها "طبقة من الأوكسجين المتجمد نتيجة انخفاض درجات الحرارة" كانت هذه الطبقة تعيق عيناي من التحديق في هذا البر الفسيح و المظلم من وراء الزجاج، و قبل أن أقوم بمسح تلك الطبقة براحة يدي كتبت على الزجاج اسم " نجوى" ثم وقعت بإصبع يدي، حاولت أن أضيع بعض الوقت في النظر على إسمها، لقد كانت لحظات جميلة لعاشق ذو قلب ضعيف مثلي، أزحت تلك الطبقة براحة يدي و أنا أودع إسمها قبل أن يُزال حرفاً حرفاً و في كل لحظة كنت أتقدم بها براحتي نحو اسمها كنت اقول في قلبي "أحبك"

إضطررت لإرتداء سترتي، كانت هناك نسمة باردة في الخارج أثارت قشعريرة في جسدي، تلك القشعريرة ستأخذ ذاكرتي إلى مواطن لا أرغب بها،

وحده البرد و المطر و تلك الغيوم التي كنت أرقبها مع والدي أسفل شجرة التوت في بستان منزلنا الذي تبلغ مساحته دنما، البرد و المطر و تلك الغيوم يذهبان بي لذكريات أرغب بها بشدة و بشدة أرغب بعودتها، سقى الله تلك الأيام، تلك الأيام التي لم أشعر بها بطعم مرارة الفراق أو الأسى برفقة والدي، لا يمكن لي أن أخط أية عبارة دون أن أستذكر والدي، كل شيء كان يعيدني إليه.

تمر الأيام دون نعلم ما الذي تخبئه لنا في جعبتها و ستبقى تدور لترينا أموراً حزينة لم نكن نعتقد يوماً بإنها ستحدث.

رحمك الله يا والدي، لم أنسى كلماتك لي و أنت توصيني خيراً بنفسي" أيامك هذه جميلة يا بني، فأنت لست منشغلاً بشيء و لا تهتم لأي أمر و كأنك طفل لم تتجاوز الخامسة، لكن في لحظة ما يخبئها القدر لنا جميعاً ستنام على شيء و تصحو على شيء أخر، ستجد نفسك رجل بلحظة مفاجئة، رجل لديه مسؤوليات كثيرة و كبيرة، عند إذٍ لا تعطي مجالاً للضعف و لا للحزن لإنهما سيأخذان أكثر مما يعطيان، تحل بالصبر و القوة و الذكريات الجميلة، كل الذي سيتبقى بين يديك هو حُلمك فلا تغفل عنه أبداً، في اللحظة التي ستغفل بها عنه لن تجد من يشد عضدك و يؤازرك كي تنهض مرة أخرى، هذه أمك التي ترى امرأة حنونة و حساسة كثيرا فهي لن تستطيع إعانتك بشيء، فالعاطفة في وقت الشدائد لا تغني و لا تنفع، لكن و مع ذلك هي امرأة مجابة الدعوة و أتمنى أن يساعدك هذا الأمر في حياتك".

عندما أنهي حديثه والدي حينها ادركت أن كلامه لم يكن لملئ الوقت في ذلك البستان بل كانت نبوءات حول الذي سيحدث، و منذ وفاة والدي حدث كل الذي قاله و ها أنا ذا ضائع لا أجد من يقود دفة سفينتي المهترئة و هي تغوص في أمواج محيط الحياة.

لم يفارق بصري من خلف الزجاج تلك النجوم التي تتحرك بسرعة كبيرة عكس إتجاه الحافلة، قاطع سكوني هذا صوت أبا خالد، و هو يقول أتمنى و أدعو الله أن لا تحدث معنا أية مشكلة على هذا الطريق: المخيف، لقد تجاوزنا مدينة تل و لم يتبقى سوى ساعة واحدة للوصول إلى حدود محافظة الرقة، هل تعلم يا يوسف بأن الركبان كانت تسير على هذا الطريق بالدراجات النارية و احيانا بالأحصنة و العربات و لم يكن أحداً منهم يخاف من الطريق حتى لو كانت المتاع التي معك ذهباً وفضة، أما الآن فأصبحنا نخشى على ارواحنا، لم أعد أعلم يا يوسف ما الذي فعلناه كي يحدث كل هذا، ما الخطيئة التي إقترفها السوريون لتحل عليهم هذه اللعنات، لا إله إلا الله، أحيانا لا أحب أن أفكر كثيراً، أخشى أن يقودني عقلي لأمورٍ لا تُحمد عقباها.

و أنا كذلك يا عم أتمنى أن لا نصادف أي عائق يعيق ما نصبوا إليه.

لقد أهلكت هذه الحرب الحرث و النسل، أهلكت نفوسنا و أبهتت وجوهنا، وحولت قلوب الأغلبية إلى قلوب أشبه بقلوب الوحوش هل ستنضي هذه الحرب بحال سبيلها بعد كل هذا.

أريد أن أسألك يا عم، ما الذي نريده من هذه الحياة و ما الذي تريده منا بعد كل هذا، لقد فقدنا كل شيء، و هي كذلك لم تبقي على شيء، هل يُعقل إننا خُلقنا فقط لتتم إهانتنا و من ثم نموت و نحن مُهانون.

شرد أبا خالد قليلاً و لا أعلم إن كان سؤالي سيقوده للأمور التي يخشى الحديث، لم ينطق و استمر في ذلك الصمت حتى طلبت منه أن ينسى حديثي إن كان هو السبب.

نظر إلي متبسماً و قال "لا يمكن أن أتجاوز سؤال من شاب بعمرك كي لا يظن أني قد أضعت سنين بؤسي دون أن أخرج بحكمة صغيرة عن الحياة و سرها، و كي لا تظن أني أعيش حياة البهائم في البراري و لا تعرف سوى الأكل و الشرب و الجنس، لن أنكر بأن غالبيتنا تعيش هذه الحياة و قد يكون هذا هو السبب الذي أوصلنا إلى هنا، لكن يا بني تأكد من أن وجودنا على هذه الأرض له مغزى و فيه حكمة و لولا ذلك لما كُنا، لسنا الوحيدين الذين نعاني، شعوب كثيرة عانت و لا زالت تعاني، في أفريقيا و في أفغانستان و تركستان.... "

عاد أبا خالد إلى صمته مرة أخرى ثم قال" لست عاجزاً عن الإجابة، لكن كل ما وصلت إليه من بداية تشكل عقلي حتى هذه اللحظة بأني لا أعلم، لا أعلم لماذا نعاني و لأجل ماذا، لكن تأكد يا يوسف بأن الابن البار بوالديه إن لم يجد مقابلاً منهم فإنه سيَعُقهم في قلبه و إن لم يظهر ذلك، و كل ما أخشاه إن طالت هذه الحرب فإنها ستنجب أبناء منافقين في برهم لربهم، سيظهرون له الحب في صلواتهم و عباداتهم، لكن في قلوبهم سيكون الأمر مختلفاً و مختلف بدرجة لا يمكن إصلاحها مع الزمن، و ذاك الاختلاف سينشئ فساداً متوارثا للأجيال التي تليهم".

أدرت رأسي نحو الزجاج مزيلاً بيدي تلك الطبقة التي لا أعرف ماذا أسميها، محدقاً نحو النجوم الهاربة في الفضاء، لا يوجد شيء في هذا الكون يملك الحرية كتلك النجوم، ليتني كُنت ناجماً هارباً عن زحام هذه الأرض و ما تحتويه.

غفوت قليلاً، لأجد نفسي بعد تلك الغفوة تحت ضوء أحد الكشافات، لم أكن أعلم ما القصة، نظرت للكرسي الذي بجانبي بعين واحدة، فأنا لم افق بعد، لم يكن أبا خالد في مكانه، نظرت للخلف لأجده جالس في مكانه، خرجت من المقعد و توجهت نحوه،

سألته :ما الذي يحدث؟

قال لي :نحن امام أحد حواجز الفرقة الرابعة، لقد حاولت النزول لكن السائق منعني، قال لي هناك حافلة في المقدمة علينا إنتظار دورنا، و ها أنا ذا جالس هنا أنتظر، نحن هنا منذ ثلاث ساعات و أنت تغط في نوم عميق و لا تعلم بشيء.

هل تعلم يا عم بأني ظننت نفسي نمت لمدة ربع ساعة، يبدو أني متعب قليلاً لهذا أُراني كنت نائما دون أن أدري بشيء، متى سينتهي التفتيش حسب رأيك

أبا خالد: لا أعلم على وجه الدقة لكن الحافلة التي كانت موجودة قبل هذه التي تقف أمامنا تأخرت ساعتين و قد بدأ التفتيش ب الحافلة التي تسبقنا منذ ساعة لذلك أظن المدة التي لمغادرة هذا لن تتجاوز ساعتين إظافيات.

عدت إلى مقعدي، و ما إن جلست حتى تبعني أبا خالد و هو يتأفف من هذا الحال، "جميع المسافرون مواطنين و عُزل لما هذا التأخير، من كان لديه نية أخرى لن يأتي بهذا الطريق و إن أتى فإنه لن يأتي بهذه الطريقة" قال هذه العبارة ثم صمت قليلاً، ثم وقف على قدميه متجهاً نحو السائق، جلس بجانبه و أخذ يتحدث معه، لا أعلم لما يذهب للسائق فلو كان الأمر بيد السائق لما كنا هنا الآن، على كل حال سأنتظره ل يخبرني بالحديث الذي دار بينهم،

عاد ابا خالد من عند السائق و قال لي بصوت منخفض" لقد أخبرني السائق أن دورنا سيأتي بعد قليل، نحن ننتظر صعود المسافرين التابعين للحافلة الواقفة ل تنطلق" لم ينهي أبا خالد حديثه حتى انطلقت تلك الحافلة ليأتي دورنا، صعد أحد العناصر الموجودين في الحاجز و قال" لينزل الجميع، و ليضع كل شخص منكم بطاقته الوطنية في يده "بدأ الجميع بالهجوم نحو البوابة الرئيسية للحافلة، و كأن سرعتهم هذه ستعجل من عملية التفتيش،

لقد كنت في مؤخرة الركب الذين نزلوا، تجمع المسافرون حول بعضهم في مجموعتين، مجموعة كانت للنساء و مجموعة للرجال، أخذ العنصر البطاقات الشخصية و إتجه نحو غرفة صغيرة تبعد عن الطريق عدة أمتار، لقد عاد العنصر بعد مضي نصف ساعة، ثم حدث السائق قليلاً لينصرف بعدها إلى تلك الغرفة، تقدم السائق و رأسه في الأرض، يبدو أنه سمع كلاماً لم يعجبه، توقف بجانبنا ثم قال علينا الإنتظار للفجر، يبدو أن الضابط يريد أن ينام، ضرب أبا خالد إحدى يديه على الأخرى لكنه لم يستطع أن يقول شيئاً، و بعد أن تأخر السائق بحديثه معنا، قدم إلينا نفس العنصر الذي أخذ البطاقات، و قال" هل مِن ممتعض بينكم لأنكم ستنتظرون، من أراد أن لا يبيت إلا تحت التراب فليقل ذلك، قام بإعادة البطاقات الوطنية ثم انصرف و تبعه السائق، متجهاً نحو الحافلة، ذهب العنصر إلى الغرفة بينما صعد السائق الحافلة، أخبرت أبا خالد بأني ذاهب لأكمل نومي في الحافلة بدل الإنتظار هنا في هذا البرد،" سنشعل نارً نتدفئ عليها فالطقس ليس كما تقول" قال أبا خالد هذا و في فمه كلام آخر لا يستطيع قوله، قلت له : شكرا يا عم فأنا لا أملك القدرة على التحمل، أريد أن أجلس مع نفسي قليلاً، اتجهت نحو الحافلة و وقف عند بابها منتظرا بعض النسوة اللواتي يريدن الصعود، صعدت الحافلةَ و عدت إلى مقعدي، قلبت نظري بين المسافرين القابعين في الخارج و بين نجوم السماء، حتى سقطت نائماً مما سمعت من ذلك العنصر.

أيقظني أبا خالد و هو يقول عليك النزول لقد حان دورنا و علينا التواجد خارج الحافلة. لم تكن الامور تسير على ما يرام فقد كان الركاب يرجفون من شدة الخوف و البرد، الحال التي رأيت بها هؤلاء الناس جعلني أفكر كثيرا و كثيرا، أيعقل أن تكون النهاية هنا. في البلاد التي تُحكم بالقوة، لن تتباهى بعقلك كثيراً فيها، لن ينجو أحد من وسواس الشيطان في هكذا مواقف و سيفكر في كل شيء.

لقد أشرقت الشمس ككل يوم كنت أراقب فيه شروقها لكن هذه المرة اختلفت عن سابقاتها، لم أعد أرى أملا و حلما كنت أراه فيها عندما تشرق.

كانت وجوه الجميع شاحبة ميتة ليس فيها حياة، كانت وجوه اموات تنتظر الغسل و الدفن.

تقدم نحونا العنصر الذي اخذ البطاقات في المرة الأولى لقد بدأ بتفتيش الحافلة و تفتيش جميع الركاب، لم يجد شيئا و بالطبع فهو لن يجد شيئا مع ثلة من الذئاب الهرمة.

اقترب عنصر أخر من عناصر الحاجز لم يكن العنصر الذي فتش الركاب و الحافلة كان ذاك طويلا و هذا قصير حليق شعر الرأس و ذقنه قد يصل طولها ل عشرة سنتمتر ذا وجه مجعد بني اللون و كأنه قد مرُغ بالطين أما عيناه فكانتا لا تناسبا وجهه من شدة حجمها و انفجارهما نحو المقدمة و كأنهما مسلوختان لا أجفان لهما

اقترب كثيرا منا حتى كاد ان يلتصق ب اول المجموعة فصاح بنا

من اين اتيتم ايها النعاج الهرمة، لم يستطع احد الإجابة، و كأن على رؤوسنا الطير

ثم صاح مرة اخرى لما لا تجيبون يا حثالة البشر يبدون ان جلودكم لم تذق طعم السياط منذ زمن، و الله لأسلخن جلودكم عن عظامكم ، تحدث احد الركاب و هو يرتجف و كأنه قد اصيب بمس

قادمون من الحسكة، رد العنصر بلهجة فيها من الكبر بما لا تطيقه نفوس العبيد التي كنت اظنها في تلك اللحظة أكثر حريةً من هذا الجمع، قال و هو يكشر عن اسنانه التي ملئها السواد :

اهلا و سهلا ب الحبايب و الى اين تذهبون اجابه سائق الباص ب اننا ذاهبون لمدينة حلب ثم طلب السائق ان يتحدث معه على انفراد، هز العنصر رأسه مستخفا ب السائق ثم اقترب منه و لكمه على وجهه و قال له الان ب امكانك التحدث معي على انفراد لان اللقاءات الخاصة لها ثمن باهظ

ادار العنصر ظهره لنا ثم مشى و قال للسائق

اتبعني يا ابن اللقيطة.

كانت المسافة بيننا و بينهم بعيدة، شعرت بالخزي عندما تم التعامل مع السائق بهذه الطريقة المريعة، بالتأكيد كانت الإهانة للجميع.

ثم التفت للعم ابا خالد و همست في اذنه قائلا :

هل سننجو؟

لم يستطيع الإجابة بصوت مرتفع، اقترب مني و هو ينظر يمنة و يسرة ثم قال " إقرأ ما تستطيع قرائته مما حفظت من كتاب الله فأنا لا اثق في هذه الوجوه، لكن و مع ذلك أنا مؤمن ب أننا لن نتعرض للإهانة اكثر من هذا حدث اما النجاة ف مؤكدة ان شاء الله.

قلت في نفسي ما بال الرجل، ما الذي حدث له، كنت أمازحه، أيعقل بأنه خائف لهذا الحد، لكن على الرغم من ذلك علي أن أكون حذراً ان تم توجيه الاسئلة لي.

فكرت مرة أخرى و قلت في نفسي ما الذي يجعل رجل بهذا العمر و قد مر بتجارب أضعاف ما مررت به أن يكون بهذا الحال من الخوف و الرعب و حب الحياة، إن رغبت في اطلاق عليها هذا الاسم، كنت اخشى من هذا السيناريو الذي امر به، كنت اخشاه في مخيلتي فقط.

"كل شيء مخيف

الظلام مخيف و النور كذلك"

لطالما كنت مؤمناً بوجود الراحة اثناء شروق الشمس، لكني الآن بت أخشى أن نورها الآن سينير الطريق لسيف الهوان على عناق المغلوبين امثالي

كنت اراقب من بعيد تلك الغرفة المبنية حديثا و بطريقة عشوائية كان امامها ارضية مرتفعة قليلا عن التراب و فوقها سقف مثبت ب اعمدة كي يعطي ظلا لمن يجلس اسفل منهما كان هناك رجلان يجلسان اسفلها على كرسيين مهترئين عليهما ملامح الضباط و امامهما طاولة خشبية حالها ك حال من يسكن فيها و بالتأكيد ان تلك الأكواب الصغيرة التي امامهم هي لشرب المتة

تبادر الى ذهني هل هم فقط أربعة اشخاص يسكنون في هذه الغرفة الصغيرة و لماذا لا يهتم بهم و بحالهم من اوكل اليهم هذه المهمة الشاقة في هذا المدى البعيد، اليس من حقهم على الاقل ان يحظوا ب الكهرباء ام انه حاجز مؤقت و يتغير كل فترة قصيرة، قاطع كل هذا الضجيج وصول السائق و العنصر الذي كان معه الى تلك الغرفة حيث استقر بهم الحال امام ذلك الضابطين.

لقد اثاروا شفقتي عليهم، علي أن أشفق على حالي و حال هؤلاء المسافرين.

لم استطع سماع شيء رغم اني سمعت اصوات قهقهة الضابطين و كأنهما جعلا السائق مهرجاً لهما او انه تحدث بشيء دعاهما للضحك...

لم يدم الحديث طويلا حتى اتى العنصر الذي اصطحب السائق إلينا و طلب منا البطاقات الشخصية مرة أخرى و من كان عمره في سن خدمة العلم عليه أن يقدم دفتر خدمة العلم للتأكد من أنه خدم او ان كان لم يخدم ليتثبتوا من تأجيل خدمته القانوي

لم يكد العنصر ينهي كلامه حتى اصبحت جميع البطاقات بيده كنت متفاعلا مع سرعة الركاب على الرغم من انهم كانوا قد جهزوا بطاقاتهم في ايديهم وبطاقتي و دفتر خدمة العلم كانا في جيبي لكن الوقت القصير الذي استغرقه في ترتيب البطاقات في يده كان كفيلا بأن اخرج اوراقي و اعطيها له

أدار ظهره و ذهب مهرولا نحو غرفة الحاجز ليمَثل امام ضابطيه و بيده ما اوكل اليه

رغم القسوة اللفظية التي لاقيناها من هذا العنصر الا انني شعرت ب الأسى عليه فهو مأمور و يبدو أنه أصبح مسيراً تحت رغبات مشغليه.

كان أحد الضباط قد اخذ البطاقات من يد العنصر و بدأ بالتدقيق بها لا اعلم كيف سيتم التدقيق بدون كمبيوتر، لكن في بلادي كل شيء ممكن و عليك ان لا تعترض على الطريقة لأنك ستواجه المتاعب

كنت خائفا و أعلم انه قد يستدعيني الى ذلك المكان لكن ما كان يخيفني اكثر هو التلعثم في الكلام ان اصبحت بين ايديهم عند طرح الاسئلة و مع هؤلاء القوم يفضل ان تكون سريعا في الإجابة حتى لو كنت ابكماً

بدأ الضابط الجالس على كرسيه المهترئ ب التدقيق الطويل على احدى البطاقات الشخصية التي كانت في يده و هز رأسه ثم أعاد البطاقة للعنصر الواقف امامه و تحدث معه قليلاً ثم أشار له باصبعه ب إشارة الذهاب ، تقدم العنصر نحونا و هو يهرول مخافة ان يتأخر على سيده فيسمع ما لا يطيق لكن يبدو انه اعتاد ان يسمع الكثير

كان قلبي يرتعد و جسدي يرتجف، لا اعلم ما الذي جعلني اشعر بأنه قادم لأجلي... قد يكون السبب لكوني الشاب الوحيد في هذا العمر الذي يجب ان اكون فيه في الخدمة العسكرية، توقف العنصر على بعد ثلاث امتار من مجموعة الركاب و صرخ بنا

السيد يوسف العلي يتفضل يقترب مني، قالها بطريقة السخرية

لم اكن اعلم ماذا افعل و خصوصا ان هؤلاء القوم قد يقذفون بحياتي للدار الآخرة بسبب تأخري حتى لو تأخرت عن الإجابة للحظات

تقدمت اليه و قلت له انا يوسف

قال لي الضابط يريدك، و عندما سألته لماذا، اجابني بعصبية شديدة

يبدو ان لسانك يحتاج للتقصير، تقدم و لا تسأل

فعلت كما امرني و سرت خلفه و قدماي لا تكادان تحملاني من شدة الخوف و الرهبة

عندما مثلت امام الضابط لم يعرني اي اهتمام لدرجة انه لم يلتفت الي، حيث صاح ب أحد العناصر الموجودين في الداخل و امره ان يسخن له مياه الابريق ف مشروب المتة لا يشرب بماء بارد

كان السائق واقفا و يراقب بصمت مشيحا بوجهه عني كي لا اساله عن سبب قدومي خوفا منه ان اقول شيئا يغضب الضابط ان سمعنا، فهمت ذلك و تجنبت الحديث مع السائق

نظر الي الضابط و سأل العنصر الذي جلبني و قال له

من هذا؟

اجابه العنصر، هذا هو الشاب الذي طلبت حضوره اسمه يوسف العلي

اعاد الضابط نظره الي و قال، اهلا سيد يوسف

الى اين ذاهب يا سيد يوسف هل تستطيع اخبارنا

الى حلب سيدي

رد علي بجدية اكثر و ما سبب زيارتك

قلت له بأن عمي مريض و مرضه شديد و انا ذاهب لعيادته

قال لي : الحمدلله على سلامة عمك، لكن لماذا لم تخدم في الجيش إلى الان و بلادك بحاجة اليك في هذا الظرف الخطير الذي تمر به البلاد ام انك تريد من غيرك ان يدافع عنك كي تحظى انت و من يلف على دائرتك بوظائف مرفهة خلف المكاتب

لم اعلم بماذا اجيبه و خشيت ان اجيب فيؤخذ علي ف هؤلاء يريدون خطأ واحدا لإدانة من يرتابون منه و ان اضطر الامر لقتله و ان لم يجدوا اي خطأً

اجبته و انا معتقد اني اعيش لحظاتي الاخيرة في هذه الحياة

انا معيل لأمي بعد وفاة والدي و مضطر للعمل كي نستطيع العيش و في نفس الوقت انا اكمل دراستي و كل شيء بأمر الله

لقد خشيت ان تكون الكلمة الأخيرة هي المسمار الاخير الذي دق في نعشي.

السياسة هي التي تختار الالهة التي نعبدها, هي التي تحركنا و تسير بنا ك أجساد بلا عقول او قلوب تقودها النزعة الوحشية للبقاء

لن اقول ان بلادي كانت قوية قبل العام 2011 و لن اقول انها ضعيفة بعد ذلك.

لكن استطيع القول ان شعب هذه البلاد قد تمزق شمله و لن يعود كما كان الا ب معجزة الهية.

هذا ما استقراءته في سنيني العجاف هذه، و هذا ما رأيته و سمعته من قتل و تشريد و دمار في الأنفس و الارواح و الأخلاق.

ان بناء الحجارة ليس بالأمر الصعب، لكن بناء الإنسان و بناء منظومته الأخلاقية من جديد بعد ان تحول لوحش لا يردع الا بالفناء لضرب من ضروب المستحيل.

لم يقل الضابط شيئاً، تناول كوبه الزجاج الصغير المملوء ب عشبة المتة و شرب حتى افاق. يبدو انه يريد قول شيء سيء

نظر الى اعلا رأسي و ما لبث حتى جال بناظريه واصلا لقدمي،

ثم اعاد بصره إلى عيني و قال :

أتظن ان هذا ينجيك من خدمة بلادك، تتذرع ب أسباب باطلة فكلنا لدينا امهات و اطفال و زوجات لكننا لا نكذب لأننا لم نُربى على ذلك، رُبينا على حب هذه البلاد وقادة هذه البلاد الذين مشوا بنا الى النور عندما كانت الظلمة تحيط بنا

مهما ابتعدت يا يوسف ستعود الى هذه البلاد و انت الذي ستختار طريق عودتك من الان، حدث نفسك مليا ف الامر لن يكون هباء و لتندم عليه لاحقا.

لكني أراك لاحقا كما اراك الان تخون هذه البلاد كما خانها غيرك، سأتركك تمضي بسلام لأجل هذه الورقة التي تثبت انك لا تنوي الالتحاق الان ب الخدمة العسكرية، لأجل الضابط الذي وقع عليها ف هو يدرك عندما وقعها ان هذا الجيش لا يحتاج ل أناس جبناء و ضعاف و لو كان فيك خير لبقيت مع أمك التي تركتها وحيدة فكيف سيكون فيك شيء من الخير لهذه البلاد.

التزمت الصمت و في هذه الحالة تتمنى لو يقطع لسانك على ان تنبس ببنت شفة.

لأنك قد لا تواجه الموت فقط بعد ان تطلق اولى كلماتك.

من السهل جدا اطلاق صفات سيئة ب اشخاص نظنهم لا يحبوننا و من الصعب معرفة مافي قلوبهم.

لقد تحدث عن كل شيء و نسي ان كلامه المنمق هذا و الذي تستخدمه الحكومة قد اوصل البلاد و من فيها لقعر الجحيم و عندما يتحدث هذا الضابط بهذه الطريقة التي كانت حقا و يراد بها الباطل فأعلم ان القادم سيكون عظيما

عندما يدافع الشر عن نفسه و يحاضر بالأخلاق علينا هنا ان ننعي انفسنا و ننعي بلادنا و قبل ذلك علينا ان ننعي الأخلاق التي ربينا عليها كما قال هو.

طلب من أحد عناصره أن يملئ كوبه بالماء الساخن و طلب من الاخر ان يجلب له علبة السجائر، ثم نظر للسائق و قال له خذ هذا الرضيع معك و أتني بثمن غداء اليوم.

يستخدم عناصر الحواجز في كل طرف هذه الكلمة لكن بصيغة اخرى و هي تقال مجازا كي يظفوا على قسوتهم و تسلطهم على العباد شيء من الشرعية.

هم لا يبالون بنا و بعقولنا ان صدقنا ان هذا المبلغ الكبير الذي سيتم اخذه بالقوة من كل صاحب سيارة او حافلة سوف يصرف على الطعام ام على امور اخرى. هم يهتمون فقط بجيوبهم و كيفية ملئها

هذا ما يعنيه الوطن لهم.

سرت مع السائق نحو مجموعة الركاب، كان وجهه لا يدل على انه بخير، ب امكاني القول انه مرهق، متعب، حزين، لا مبالي بعد كل هذا بما سيحدث، و قد يكون في عداد الموتى و ما اراه هو جسد خاوي ينتظر تحرك الريح كي يسقط للمرة الالف و للمرة الأخيرة.

و قبل أن نصل للمجموعة ب عدة امتار التفت الي و قال :

ان لم يكن للحياة طعم فوق الأرض في بلادي

فلابد أن يكون لها طعام تحت الارض.

ثم اكمل مسيره و انا اتبعه، وصلنا للمجموعة لم يستطع التحدث على الفور، طلب من معاونه ان يأتي له بكوب ماء، هذا ما يطلبه الاشخاص الذين يلفظون أنفاسهم الاخيرة قبل موتهم، ذهب المعاون و جلب له ما اراد، أخذ الكوب من يد المعاون و شرب ما فيه ثم قال للمعاون : لن نكون سويا في المرة القادمة

حان الوقت الذي يجب ان اغادر فيه هذه البلاد فهي لم تعد تصلح للعيش الا للوحوش.

كان الركاب مجتمعين حوله ينتظرون ما سيقوله، تحدث العم ابا خالد و قال له صحيح ما قلته لمعاونك و هذا ما فكرت به، لكن المهم الان ماذا سنفعل هل سنمضي اما سنبقى!

قاطعه السائق بقوله

على كل شخص ان يدفع ٥٠٠٠ ليرة و الا فانه سيتعرض لإهانة سيتمنى لو دفع الملايين لتجنبها.

ساد الصمت قليلا، ثم بدأ الجميع بإخراج محافظهم لدفع ما عليهم لحراس هذا الوطن.

هل نحن نستحق ما يحدث، هل نحن من صنع هذه الوحوش بصمتنا و جُبننا، ان كان ذاك فنحن لا نستحق الحياة اصلا نحن شعب تمت تربيتنا بطريقة خاطئة و قد كان هذا الخطأ ممنهجا لنكون ما عليه نحن الان، نحن ك الأنعام بل أضل سبيلا

كان البعض متذمرا من هذا و منهم من أظهر هذا التذمر و البعض الاخر يخاف من نفسه ان تخبر احدهم بهذا التذمر فينتهي به الامر مسلوخا على احد الطرق، التذمر هو السيف الوحيد الذي يستطيع إشهاره الضعفاء.

قام السائق ب جمع المبلغ المطلوب، ثم مضى نحو تلك الغرفة التي لا تساوي ٥٠٠ ليرة ليعطي زكاة المواطنين المؤمنين لحراس هذا الوطن، عندما وصل لمكان جلوس الضابط انحنى نحوه و اعطاه المبلغ و بقي لمدة قصيرة، كان الضابط يعد النقود خوفا من ان تكون ناقصه و عندما انتهى من العد اشار ب اصبعه نحو السائق و هو يأذن له ب الانصراف

اشار السائق لنا من بعيد ب إشارة معناها اصعدوا الحافلة، بدأ الجميع بالمشي نحو باب الحافلة ،كانت تحرك الركاب في الصعود سريعا ك قطيع الثيران المذعورة عند رؤية ما يريبها.

كنت أخر من صعد الى الحافلة ففي مثل المواقف العبثية التي تصادف المرء في حياته أحب أن اكون في نهايتها، لأرمق ببصري جميع تلك الوجوه الشاحبة و التي ليست لها اي اهمية في هذه الحياة لكنها تتصرف عكس ذلك... تشعر و كأنهم من عرق صاف و نقي و يحاولون المحافظة على هذا العرق من خلال البقاء على قيد الحياة و لو كان عبر امتهان كرامتهم، المهم هو وجودهم في هذا الفناء....

صعد السائق الى مكانه في الحافلة بعد ان تفقد المحرك،

كانت الساعة السابعة صباحا عندما انطلقنا من تلك البقعة المنسية و من اولئك الأشخاص الذين لن نراهم مرة أخرى... كان العم ابا خالد قد غلبه شيئا من النعاس لكنه يكابر ليبقى يقظا قال لي بصوت متعب:

لقد تأخرنا، سمعت ان الرحلات تتأخر كثيرا في هذه الظروف الأمنية الحرجة و قد تصل للضعف او لضعفي الوقت اللازم للوصول لوجهة ما، و كنت اعلم ان هناك عوائق على الطرق، لكن ان تسمع ليس كما سترى و تعايش، كانت لحظات صعبة من السيء جدا ان تكون في هكذا موقف و بهذا العمر وتتعرض للإهانة النفسية من قبل أناس لا يدركون قيمة الانسان و معنى الكرامة، مادام القيادة تعتمد على مثل هؤلاء في حمايتها فهذا يعني ان المحظوظ منا من يغادر هذه البلاد.

داعب حديثه هذا اصرار امي الدائم على خروجي من هذه البلاد و الحاحها المستمر, لكني كنت أخلق لها اعذار كثيرة اعتبرها منطقية... هي لم ترى ما تعرضنا له و كانت تعلم بحقيقة الحال التي وصلت اليها البلاد، اما انا ف لم اكن مؤمنا بهذا حتى رأيت، يبدو جليا لي الان....

بأني اذا اردت الحقيقة علي ان اكون مستمع جيد لحديث أمي، كم أشتاق اليكِ يا أمي، نعم كان يجب علي ان اتأكد من صندوق رسائلي قمت بفتح هاتفي فوجدت رسائل أخي أحمد و رسائل من أمي و رسائل من رقم جديد...

كان أخي احمد كما عهدته في رسائله اذا وصل اليه حديث ب اني ارتكب حماقة، يبدأ ب السلام و لا يلبث حتى يلومني على كل فعل افعله، كتب لي:

السلام عليكم اخي يوسف، كيف حالك، علمت بأنك قد غادرت الى حلب لتزور عائلة عمك محمد، لماذا تفعل هذا و ما الداعي له، يبدو انك لازلت طفلاً،

عائلة عمك حالها سيء و قد تصل حلب و هم قد غادروها الا تعلم ماذا يحدث هناك، دائما تفعل ما تريد دون مراعاة شعور امك التي تركتها خلفك وحيدة، لا تنام ليلها بسببك، اعلم انك متهور، لكن كذلك اعلم انك تستطيع اتخاذ قرارت مهمة و صائبة احيانا

اتمنى ان تصل بسلام و تنبئني ب اخبارك اول بأول, دعواتي انا و عائلتي لك.

لم ارد على كلامه كله ف أخي لا يحب الاخذ و الرد اذا كنت انا الشخص المقابل له في اي موضوع، يجب ان يكون على حق دائما.

لم ترسل أمي الكثير من الرسائل كانت تريد الاطمئنان ،انشئت رسالة جديدة ثم كتبت :

أعلم ان كلماتي ستخفف عنكِ كثيرا، كنت اعلم اني مخطئ في كثير الامور التي كنتي تنصحيني بخلاف ما افعلها، لكني اتذكر كل كلماتك و بخصوص كل شيء و أعدك بأني لن اعيد تكرار اخطائي مرة أخرى، يبدو أن هذه الرحلة كانت ضرورية، نعم كانت ضرورية للتثبت من أمور كثيرة لم اكن اعتقد ان سأعيد التفكير بها يوما،انا في هذه اللحظة احتاج لدعائك كثيرا رغم علمي بأنكِ لن تدخري شيئا في هذا، أنا بخير لا تحزني و كل قُدر لنا سيكون.

هكذا انهيت كلماتي و لم أنهي شوقي الذي يتقد في قلبي لها. سنلتقي مرة أخرى يا أمي، قاطع ذلك الشعور شعور اخر يقول لكن هذه المرة سيكون اللقاء بعيدا.

و عندما فتحت الرسائل التي وردتني من ذلك الرقم وجدتها من عمي محمد و انه هو صاحب هذا الرقم، كان قد بدأ بالسلام و الاستفسار عن حالي واصفا اياي في احداها

أنت غريب و ستبقى غريب، كيف تترك امك لوحدها و تعرض نفسك للخطر، ايعقل أن تأتي دون ان تخبرني على الاقل، الا تريد ان تعلم ماذا يحدث هنا, يبدو انك لا تتابع الاخبار

المدينة تعيش حالة من الرعب ان لم اقل انها تحولت لجحيم على ساكنيها، أمس دخلت المجموعات التي تعرفها الى المنطقة التي نعيش بها، لن استطرد بالحديث اكثر من ذلك لكننا الان نتحضر للهجرة الى الريف الشمالي و من ثم سأتجه الى تركيا لن انتقل للأحياء التابعة للحكومة لان الحكومة اعتبرتنا نحن الذين سهلنا دخولهم، و لا استطيع المجازفة بعائلتي و اضعهم في قيد شكوكي بما سيحدث لهم لو انتقلت للأحياء التابعة للحكومة

قد تصل و نكون نحن قد غادرنا الى المكان الذي اخبرتك عنه، ان شعرت بأن طريقة العودة الى بلادك صعب ارسل لي كلمة "انا مستعد" عندئذ سأتحدث مع احد الاصدقاء ليأمن لك طريق عبور الينا، اتمنى ان يكون طريقك امنا، استودعك الله.

اجبته بعدة كلمات جلُ ما احتوت

انا لم اخطئ يا عماه و لست غريبا كما تظن، انتم من اجبرني على ذلك، اتمنى ان يكون طريقكم امنا، و سأرى ما سيحدث معي و من ثم اقرر.

اغلقت هاتفي و انا لا اعلم ماذا افعل. خصوصا اننا اقتربنا من مدينة حلب ولم يتبقى سوى ساعة واحدة للوصول.

كان الإشارات الموجودة على يمين الطريق تدل بأننا على مشارف المدينة، بدأ ارخبيل لا متناهي من الابنية، كانت حركة المرور عادية نوعا ما، لكن الشوارع كانت خالية من المارة، كان هناك دخان اسود في السماء أتٍ من منطقة ليست ببعيدة ، حاولت نسيان كل هذا و التفكير في الذي سأفعله ان لم أجد عائلة عمي.

حطت الحافلة في أحدى المحطات القديمة، كنت أتساءل هل وصلنا لنقطة النهاية، ام انني الان قد بدأت في هذه الرحلة.

قاطع هذا كله نداء المعاون بقوله:

حمدا لله على سلامة الجميع لقد وصلنا، التفت للعم ابا خالد و قلت له بصوت فيه من الخوف و الريبة الشيء الملحوظ:

هل وصلنا.

أجابني و هو يتمم ب امور لا افهمها :

نعم حمدا لله على سلامتك، لا تنسى ان تأخذ حقيبتك من صندوق الحقائب، اذهب للمعاون و اقضي حاجتك بسرعة، لأننا قد نزلنا منزلً غادره اهله.

صافحت العم ابا خالد و نزلت نحو صندوق الحقائب، قال لي المعاون ما لون حقيبتك، قاطعته بعبارة تلك التي على يمينك ذات اللون الرمادي

تأكد المعاون من الاسم المكتوب عليها ثم اعطاني اياها و مضيت الى احدى الاستراحات لأجد مكانا مناسبا استطيع التحدث منه مع عمي

خرجت من باب المحطة و اخذت جهة اليمين بعد ان رأيت ان كل المحال الموجودة يسار المحطة مغلقة

مشيت تقريبا لمدة ربع ساعة حتى وصلت لإحدى الاستراحات الكبيرة في ذلك الشارع.

عندما دخلت تلك الاستراحة استقبلني احد الموظفين مرحبا بي قائلا :

اهلا وسهلا بك.

رددت له التحية و بحثت عن زاوية خالية من الزبائن فوجدت جميع الاماكن خالية، قلت للموظف :اعتذر ان اخطأت في التوقيت لكن هل استطيع الجلوس لشرب الشاي لأني اعتقد ان العمل لم يبدأ.

أجابني ب ابتسامة حزينة :

لاتعتذر استاذ ف هذه هي حالنا منذ شهر تقريبا،

لم يكن لدي ما اجيبه به،سوى انني انسحبت لإحدى الزوايا لأخذ قسطا من الراحة و اتصل بعمي محمد.

حاولت الاتصال بعمي محمد أكثر من عدة محاولات لكن الاتصال لم يكن متاح اليه، القيت هاتفي النقال على الطاولة، منتظرا كوب الشاي محدقا مرات و مرات في شوارع هذه المدينة الغير مأهولة بالحياة، تقدم موظف الصالة الي ملقيا علي تحية الصباح و واضعا كوب الشاي أمامي لينصرف بعدها بعد ان سألني ان كنت بحاجة لشيء اخر... لم يكن لدي مزاج على اي شيء سوى ان احرك قطع السكر و هي تغرق للمرة الاخيرة، اعدت الاتصال بعمي محمد ليظهر لدي انه جاري الاتصال، بعد عدة ثواني اجابني عمي محمد بادئته بالتحية، فرد علي مسلما و سائلا عن حالي، سألته هل لازلتم في بيتكم، و كيف هي الحالة الأمنية لديكم، صمت للحظات ظننت بها ان الاتصال قد قطع، ثم قال لي

يا ابن اخي لم يعد هناك منزل و لم يعد هناك حيث عهدت اهلا لذلك المنزل، لقد غادرنا منذ ساعات المدينة، بطريقة انت تعرفها الى الريف الشمالي و نحن الان بخير في منطقة تسمى"أعزاز"، أنت ماذا ستفعل الان... هل كانت امك تدعوك لمغادرة البلاد دائما، ام انها توقفت عن ذلك.

لم استطع الإجابة، ذهبت بخيالي الى نجوى و ب الحالة التي وصلت اليها حالهم، كل شيء في جسدي كان يختنق، كاد صدري ان ينفجر و انا ارسم في خيالي رحلة هجرتها هذه من منزلهم الذي اعتادت عليه لتجد نفسها في مكان لا يمت لها بصلة ،قلت له بعد تردد طويل:

كيف حالها، كيف حال نجوى، صمت للحظة ثم قال جميعنا بخير لا تشغل فكرك في هذا الان عليك ان تنام في فندق، ثم تفكر مليا ان اردت العودة لبلادك، ام انك ستلحق بنا.

تلحق بنا! ام الحق بها ؛ و هل يظن عمي أني اتبعه.. قلت في نفسي سأسير اليكِ حتى لو كنتي في الجحيم.

أعطاني رقم رجل ثم قال لي ان اردت ان تأتي تكلم مع هذا الرجل و قل انك تريد ان تأتي الي و هو سوف يتكفل بالباقي، ثم اكمل قائلا :لا استطيع التحدث كثيرا، لدي بعض الامور ف حالنا يحتاج للترتيب قليلا، و لا نعلم هل سنبقى هنا ام سنغادر الى تركيا، اتمنى ان تكون معنا عندما نغادر، سيبقى عقلي منشغلا بك حتى تصبح بخير، ان احتجت لشيء ارسل لي رسالة على رقمي... انتبه لنفسك جيدا،

ماذا سأفعل بكل هذا الذي في قلبي يا عماه، فترياقي بين يديك، هذا ما اعتدت ان افعله، عندما لا استطيع الحديث علنا احدث نفسي.

قلت له :سأفعل ما يجب ان يُفعل و سأوافيك بالأخبار عندما تستقر لي الحال، فانا لم اتوقع هذا الحال لي و لكم.

انهيت الاتصال بعمي على هذا، و رميت جهازي النقال على الطاولة متذمرا و ساخطا مما انا فيه، اعدت النظر نحو تلك الازقة و الابنية، و عقلي منشغل باتخاذ قرار قد يكون حاسما في حياتي، ان اول ما علي فعله هو الاتصال ب امي و ارسال بعض الرسائل لأخي

لأطمئنه على وصولي بسلام لمدينة حلب. ها قد توقف الوقت عندي مرة اخرى، و للمرة الالف توقف بسببك انتِ.

كنتِ جميلة و كان حبك جميلاً. كل شيء يتعلق بك كان جميلاً

الا طريقي إليك... و تلك الذكريات التي ترافق ذاكرتي في سنين الخوف تلك لم يكونا جميلين.

لكني احتفظت بهما لانهما يتعلقان بك .اعلم اني احفر قبري بإبرة متأكلة، أعلم ان اغادر كل شيء في هذه الحياة،

رفعت جهازي النقال و قمت بالاتصال بَأمي التي تنتظر مني اخبار وصولي بسلام الى وجهتي، اتصلت بها أكثر من عشر مرات و لم اجد استجابة بسبب رداءة التغطية في المنطقة التي تعيش بها...

اكتفيت بإرسال رسائل نصية اليها لأخبرها اني بخير وقد وصلت وجهتي لكني لم اجد الذين كبدوني هذا العناء، قلت لها انا ها هنا، لا استطيع فعل شيء، وَ افكر كثيرا في الاستجابة لنصيحتك بمغادرة هذه البلاد، التي لطالما وصفتها بأنها لم تعد تلك البلاد التي عهدتها منذ زمن، كل شيء تغير، وجوه من حولنا، و المنازل التي تحولت ل اماكن للنحيب على ارواح من رحلوا الى باطن الارض تاركين لمن بقوا، القليل من الذكريات ليعتاشوا عليها الى حين اللقاء بمن يحبون،

نعم يا أمي اشتقت اليك كثيرا و أخشى اني بدأت افتقدك، كما افتقد والدي الان، كنت دائما تذكرين لي والدي و تبكين بعدها لكني لم اكن ابكي معك، و كأنك كنت تبكينه عنا جميعاً...ماذا فعل غيابك بك يا والدي و انت الان مسجى على بساطك اسفل تلك الرمال البيضاء تنظر الى فلذة كبدك و هو يعاني ما ترى في بلاد لا ينتمي لها و لا تعرفه ،

هل ستصبحون كلكم ذكرى حزينة و ابقى انا الوحيد الذي يذكركم على وسادته المبللة بنحيب عينيه،

هل مع هذا كله سأتغير كما تغير محمد أحد اعز اصدقائي الذي قال لي:

تلك الظروف الصعبة التي مررنا بها، جعلت منا اشخاص غير عاديين بدون ذاكرة و بدون اي ماضي

حتى ان تذكرنا الماضي سيكون مروره عاديا في الذاكرة المتهالكة، سيمر بدون ان نبكي

أيعقل ان يوم ما سيمضي و لن أبكي... فالفراق ليس أقل واطئة على النفس من الموت ان كان طويلا

كان علي الخروج من الاستراحة التي جلست بها كل هذا الوقت حتى بان على وجه الموظفين ذلك، جالس منذ وقت طويل و لم يطلب سوى الشاي، طلبت الحساب من النادل ف بادرني به على عجل و كأنه كان يضعه في جيبه، دفعت ثمن ما اخذت و اعطيته إكرامية ضعف ثمن الشاي، بعض المواقف الصغيرة قد تُعطي كبيرة دون ان نشعر نحن بذلك و سيشعر غيرنا، غادرت الاستراحة متوجها الى اقصى الشارع الذي كنت امشي فيه، سرت مسافة جيدة اطالع البيوت، الازقة، و السماء، في هذه المدينة الكبيرة يمكن ان ترى الشيء بعدة أشكال بمجرد ان تغير زاوية الرؤية لكن الشكل الذي اقصده ليس ماديا، بان احد الابنية بحالة جيدة و انا جالس في الاستراحة، و عندما كنت امشي بجانبه و تجاوزته كان حائطه الخلفي اشبه ب جسد شخص ميت منذ سنين لا يوجد به سوى بعض اللحم على تلك العظام الذي ستذروها الرياح يوما.

هذه المدينة ميتة و إن تظاهرت بإنها على قيد الحياة.

قطعت مسافة كبيرة لأصل الى أقرب نُزل في الحي، الذي يبدو انه كان حيً سياحيا، دخلت النُزل و توجهت نحو موظف الاستقبال في النُزل، بادرني بالتحية قبل ان ابدأ بالحديث

اهلا استاذ كيف استطيع ان اساعدك، قلت له اريد غرفة، اعطاني مفتاح احدى الغرف و قال لي رقمها ٤ و هي موجودة في الطابق الثاني، يبدو ان هذا النُزل لا يتعامل مع زبائنه ان كانوا مواطنين امثالي كما يتعامل مع الزبائن الاجانب و القادمين من خارج هذه البلاد.

لا اعلم ما السبب ان كنا جميعا ندفع ثمن المنامة، ام ان ذاك السائح الاجنبي يستطيع التحايل عليه، اخذت حقيبتي و توجهت نحو الغرفة رقم 4

لم تكن الغرفة ب المستوى المطلوب لكن ما خفف علي ان اجرتها كانت مناسبة لذلك لن اناقش في امر اي شيء يعكر صفوي في هذا النُزل.

رتبت ملابسي في الخزانة و اخذت حماما دافئا غاسلاً به عناء طريقي الذي مررت به، ثم ذهبت الى فراشي لأخذ قسطا من النوم.

النوم هو الأمر الوحيد الذي يوقف عقلي عن التفكير بكل شيء تقريبا، يوقفه عن الحياة، و يوقفه عن الشوق، لكن لا يستطيع ايقاف قلبي عن الحب.

جميع الذين اعتقدت انهم فهموا هذه الحياة و استوعبوها في عقولهم، فقدوا ذاكرتهم، و جميع الذين دفنتهم بيدي قبل اوانهم كانوا فاقدين للذاكرة، اخر من دفنت لامست يدي كبد قلبه، و من ذلك الوقت يدي محترقة و لا اتذكر الماضي و لا الحاضر.

استيقظت بعد ان نمت وقتا طويلا، ذهبت الى الحمام و اغتسلت ثم طلبت طعام من خدمة النزل، لم يتأخر الموظف المسؤول في جلب الطعام.. كان قد احضر لي صحن صغير من الارز و يغطيه بعض قطع اللحم و بجانبه صحن من الخضار المقطعة، تناولت طعامي لكني لم أشعر ب أي طعم و كأني كنت املئ فمي بالهواء، لكني شعرت بالشبع، عاد الموظف ليأخذ الاواني و كان قد احضر معه كوبا من الشاي.

ذهبت الى الشرفة الموجودة في الغرفة و جلست على كرسي خشبي ذا لون بني محترق و طاولة تشابهه باللون يعلوها لوح من الزجاج استطيع من خلاله رؤية جميع احزاني و احزان الذين جلسوا هنا و غادروا بصمت دون ان يشعر بهم احد.

كان المبنى مطل على تقاطع طرق كبرى و كأنها بداية احدى المناطق الراقية في المدينة، استطيع رؤية جميع الابنية الضخمة الموجودة على جنبات هذا الطريق، و يقطع هذا كله الشمس التي تخترق بأشعتها الدافئة كل هذا الضجيج البشري لتصل الى قلبي، هي ذاتها الشمس التي تراها أمي كل يوم و هذا اليوم رأتها لكن كانت لوحدها هذه المرة.

من الصعب ان تحتفظ بالأشياء الجميلة لمدة طويلة و هي تحمل ذكرى حزينة في قلبك، ك قلادة او عملة معدنية او صورة صغيرة لاحدهم تضعها في محفظتك، كانت الشمس هي ذكراي لأمي و ذكرى أمي لي، نستطيع ان نرى بعضنا من خلالها و نستطيع ان نتحدث و نستطيع البكاء كذلك.

لا يمكنني ايقاف الوقت عندما اشعر بأنني ارتكبت خطأً في بداية امر اريد اتمامه، لكن قد استطيع ايقاف ما اريد فعله.

هل انا مخطئ في تبعيتي لك، أليس لي عزاء باللقاء و ان كان اخيرا، آلا تستطيعين اعطائي فرصة اخيرة في الحب، لطالما أحببتك لدرجة اني لا اذكر في العشرون سنة الماضية سوى رائحتك و لون عينيكي، دائما ما كنتي تلمحين لي أننا لن نكون سوياً، و أننا ك الاخوة، هذا ما كنتي تحاولين ترسيخه في قلبي حاولتِ كثيرا ثنيي عن ممارسة حُبك بيني و بين دفاتري، حاولتِ دائما أن تشطبي إسمك من ديوان ذكريات قلبي البائس معك و ها أنا ذا أرى مرارة تآمر الايام و الاحداث و احاديثك علي، حاولت جاهدا أن عبر من تلك النقطة الضيقة في قلبي نحو السماء لكني عدتُ اليكي

كل دروب الرحيل التي نصحتني بها قادتني اليك.

عُدت الى داخل الغرفة بعد ان غابت الشمس و تركت خلفها طيفا يحمل معه بقايا تفاصيل رحيلك عن هذا المكان، عدت الى غرفتي محاولا تجنب وداع الشمس الذي اريده ان يكون الاخير، لا اريد ان اغادر هذه الحياة من دون ان اعانقك و لو للمرة الأخيرة.

كل شيء يمضي بسرعة، نومي في حضن أمي و انا صغير، قدوم العيد عندما كنت صغيراً و شراء أبي لي اجمل الملابس ، ايام سعادتي في الثانوية مع الأصدقاء و احاديثنا الجانبية بكل شيء و خصوصا عن الفتيات، نجاحي في الامتحان الثانوي النهائي و وصولي للجامعة، هدية والدي في تلك الفترة، الهدية التي لازلت احتفظ بها الى اليوم، ذهبت تلك اللحظات و ذهب أغلب الذين كانوا فيها إما بالفقد أو الهجرة و المجهول الذي يخفي عني الكثير من أخبار اولئك الذين عرفتهم و عرفوني، لم يتبقى سوى تلك اللحظة التي أحببتك بها عندما رأيت للمرة الالف و ان تأتين مع أمك لزيارتنا في جلسات الأنس المنسية، لقد رأيتك في تلك اللحظة و كأني اراكي للمرة الأولى، لم تكوني عادية ابداً، منذ تلك اللحظة أحببتك و غُيبت عن مسرح الحياة، لم أكن أعد الأقلام التي جف حبرها و انا أحاول كتابة إسمك، لقد جربت جميع المحابر و لم أستطع كتابة إسمك، أدركت حينها أن قداسة إسمك لا تحتويها سطوري المبعثرة، لقد شحذت قلبي بِحُبِك، محاولا أن أجعله قويا لا يضعف و لامعاً لا يصدأ و هكذا كان في سنيني تلك التي كنتي فيها على مرمى عناق صغير و قبلة غير مرئية أمام الجميع، ألقيت كل شباكي لأصطادك و لم أدرك أني كنت اعوم على رمال يدك المتحركة و في كثير من الأحيان كنت أغرق بها.

لم أحصد في سنيني تلك مقدار حبة من حُب، كانت كلها ملئة بالسنابل الفارغة.

كل مواسم الحصاد تأتيه بالخير على من يجنيها، إلا موسم حصادي هذا لم يعد علي بشيء سوى الخيبات، صحيح ان طريقي اليك لم ينتهي و يبدو انه قد بدأ الان، لكن روحي مرهقة كثيرا و لا اعتقد أنها سوف تستطيع الصمود كثيراً.

أغمي على قلبي و هو يعاني من صراع طويل مع الذكريات، كنت جازماً بأنها ستكون الإغماءة الاخيرة لذلك القلب، كل المقدمات التي بدأتها الذاكرة و هي تذكي بنارها جمر اشتياقي كانت كافية لإطلاق رصاصة الرحمة لهذا القلب الذي لم يبقى فيه موضع عشق إلا و قد خاب و كُسر.

أنا رجل استنفدت جميع فرص العيش و قلبي كذلك لم يعد قادراً على الحب ك سابق عهده.

كان لابد بعد هذه المقاساة الحزينة لآلامي أن انام طريح الاحاديث الصامتة التي تدور في فلك احزاني.

ثلاث أيام قضيتها ها هنا و انا أحاول الاتصال ب عمي و لا مجيب، أنتظر من الناحية الاخرى إجابة من والدتي عن الامور التي يجب أن افعلها، هل ستطلب مني العودة أم انها ستعيد العزف مرة أخرى لسمفونية الوداع الاخير الذي كانت تخيرني به أحيانا و تجبرني على المثول له أحيانا أخرى، ليتني لم أتي و ليتني لم أفكر و كم تمنيت أني لم اعرفك أبدا يا نجوى، ليتني لم أكن و لم أولد و كنت نسيا منسيا.

كانت هذه الأيام القلائل التي مرت كافية لإنهاكي نفسيا و جسديا و زيادة ملحوظة في اللون الابيض الذي اصبح يحتل جنبات شعري، كذلك مزيدا من الحب الذي اعتقدت نَضُب.

لم يكد جهازي النقال يرن حتى التقطته ك الأم التي تحضن طفلها الرضيع, لقد كانت رسائل من أمي،

على الفور حاولت الإتصال بها جاهدا لكن الإرسال لم يكن جيدا كالعادة، فتحت صندوق الرسائل فوجدت بها رسالة يتيمة و حزينة من أمي تقول بها :

ابني البار يوسف أحمد الله على سلامتك و أصلي له دائما ليحميك أنت و أخيك، أنت تعلم أن قلبي معلق بك و ما أنفك لحظة و انت بعيد عني الا و نطقت اسمك، أيامي لم تعد بذلك الجمال و السعادة كما كنت انت معي، تذكر أني اذكرك دائما يا زهرة صحرائي الوحيدة

لقد اتصل بي عمك و علمت منه انه غادر حلب متوجها نحو الريف الشمالي ، و قال أيضاً بأنه اعطاك رقم رجل سوف يساعدك للوصول اليه و الهروب من هذا الجحيم الذي تعيشه البلاد، لا تتوقف للتفكير للحظة، اذهب حيث أمرتك دائما و لا تقف عند حدود هذا الجحيم و تنظر للخلف، إمضِ قُدماً بحيث اطمئن أنك بخير و يطمئن والدك و ترتاح روحه كذلك، إمض و أنا معك، ستجد الله دائما بجانبك و أنا كذلك.

لم استطع إمساك عيناي عن البوح بما داخلهما، لتنفلت الدموع و كأن الذي فاض من عيني سيل من الماء الساخن يبلل المآقي التي قتلها العطش.

يا أمي إن ذهبت فلن أعود و أنتِ تعلمين ذلك أكثر مني فلما تطلبين هذا مني، قد استطيع العيش من دون الجميع لكني لا اقوى على مقاساة البعد كثيراً.

حاولت الإتصال بعمي عدة مرات لكن إشارة الإرسال لم تكن جيدة في المكان الذي وصل إليه، قلبت برسائله التي أرسلها لي كي أخذ رقم الرجل الذي نقله من حلب إلى الريف الشمالي، قمت بحفظ الرقم بعد نسخه و اتصلت به، لم يجب من المرة الأولى، احتجت لعدة محاولات كي يجيب،

ألقيت عليه التحية و أخبرته أني ابن اخ العم ابا نجوى.

رد علي التحية و قال لي أهلاً و سهلا بك، كيف حال أبا نجوى، لم يكلمني مذ غادر من هنا، أتمنى ان يكون بخير.

أجبته و انا على عجلة من أمري،

إنه بخير لكن يبدو ان المكان الذي يعيش فيه لا يوجد به اتصال جيد، و قد تحدثت معه و ارسل لي رقمك و قال لي ب أنك سَوف تساعدني للوصول الى المكان الذي يتواجد به،

اجابني بهدوء حذر أين أنت.

أجبته بأني الان في مدينة حلب في منطقة اسمها الشيخ نجار مقيم في نُزل اسمه عين الشمس.

صمت لبرهة ثم قال :اعرف المكان جيدا، هل انت جاهز للرحيل غداً

أجبته ب الايجاب و انهيت مكالمتي معه على هذا.

لكن توقفت كثيراً عند جملة "هل أنت جاهز للرحيل"، هل أنا جاهز حقاً للرحيل، هل سيكون لهذا الرحيل تأثيرا على روحي و نفسي و ذاكرتي كذاك الرحيل الذي أخذ والدي،

لطالما غصت الروح عندما ينقل إلى مسامع الفؤاد شيء ما عن الرحيل، هذه الكلمة لو دققنا لغويا و معنويا بها لخلعت الافئدة من شدة وطئتها.

تلك الطيور التي رأيتها تهاجر منذ كنت في العاشرة من عمري لم تعد الى الديار مرة أخرى و بقيت أعشاشها خاوية لا تسكنها سوى رائحة الراحلين منها، انتظرتها طويلا و كان الانتظار صعباً، كانت أملاً لي ف هي ان عادت سيعود معها من رحل.

لم يعد أحد من الذين انتظرتهم كذلك والدي ذهب مع ليالي الجنوب الباردة و لم أعرف الدفء منذ ذلك الحين و لم يعد، أشتاق لك يا والدي كثيرا و لا يُلمني قلمي ان تجاوزت نصي و كتبت عنه بطريقة فجائية و مخيفة و خجولة احيانا و بائسة في كثير من المرات.

لا أعلم ما هو الشعور الذي قادني لأتصفح صور من رحلوا، تلك الصور التي احتفظ فيها في قلبي و ذاكرتي العجوز، لكن ما أعلمه أن حاجتي للدفء هي التي جعلتني أفعل ذلك.

كأوراق الشجر في نهاية الخريف تتساقط ملامحهم من ذاكرتي و رويدا رويدا بدأت أنسى تفاصيل تلك الوجوه الباسمة، لولا بعض الأحلام التي تعيد رسمها في مخيلتي مرة أخرى لقلت أنني نسيت ملامحك يا أبي.

هكذا تعزف الذكريات أنغامها الحزينة في منتصف كل ليل بارد بائس على الأرواح المرهقة بالحنين و الشوق.

لست جاهزاً للرحيل.....

- نهضت من فراشي بعد أن أنهكني الراحلين بزياراتهم القصيرة، كنت أعد الساعات و الدقائق قبل موعدي مع هذا الرجل، أنتظره و أنا أنظر للماضي القريب و لذاك البعيد، شيء ما همس في أذني في تلك اللحظة و قال لي أتمنى أن لا تكون ايامك المقبلة أسوء من هذه اللحظات التي تعيشها، شيء ما قال هذا و مضى دون أن أراه ، دون أن أشعر بوجوده، مضى و لم يترك سوى أثراً رمادي اللون في ذاكرتي... و ترك شبحاً يقاسمني كل شيء تقريباً، شبحاً يشبهني، يشبه كل أحلامي الباهتة التي ماتت و لم يتبقى سوى مكانها، يشبه لحظات خوفي و لحظات حُزني و لحظات موتي الأخير.

ليس هناك متسع في قلبي لكل هذا وأنتِ فيه

بعبارة أخرى لم أعد أشعر بقلبي لقد أصبح كياناً منفصلاً عني و لا يأتمر بأمرتي.

ذهبت للحمام و اغتسلت، طلبت كوباً من الشاي، جلست على ذلك الكرسي الذي بدا و كأنه مل من إنتظاري في تلك الشرفة الصغيرة التي تطل عالم كبير و مليء بكل شيء، ستكون تلك الشرفة كبيرة ب إطلالة صغيرة على الماضي للأشخاص الذين تبلدت مشاعرهم و انتموا لفصيل أخر غير فصيلهم الإنساني ، كان الوقت قبيل الغروب بساعة

لم أكن أنتظر أحداً

ما كان ينتظرني هو الرحيل.

أخذت أمشي ببصري نحو السماء، حدقت ملياً بها فلم أجد شيئا، سوى طائر صغير يلوح في الأفق يبحث عن شيء ما ضاع منه في هذه البقاع ، يبدو أن السماء هي الأخرى لم تعد تعرفني أم أنها سماء أخرى غير تلك التي تعلو رأس أمي.

أنتظر ساعاتي الأخيرة هنا و لا أعلم إن كانت فقط هنا.

شيء ما يَشُد قلبي للخلف...

قد تكون بقايا ذكرى حزينة من أحدهم.

الساعة الآن قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً، لم يكن الليل طويلاً كعادته، لم أفعل شيئا في تلك الليلة سوى الجلوس في تلك الشرفة الرمادية و التي تطل بدورها على مدينة مظلمة لا حياة فيها، كل ما عشته في سنيني التي خلت تذكرته في هذه الليلة، حتى أني تذكرت أدق التفاصيل في بعض المواقف، ليتني أستطيع البكاء دائما حتى في أحلامي و يقظتي ف ذاكرتي هي الوحيدة التي تبكي،

كنت مؤمنا دائما بأن البكاء هو الشيء الوحيد الذي يواسيني في كل هذا بعد أمي، جميع الذين رحلوا عادوا إلي اليوم و حدثوني و من كان مخطئا في حقي سامحته و من أخطأت في حقه يوما ما طلبت منه العفو و الغفران.

لم أكن سليل عائلة تؤمن بالفلسفة و البدع، كانت عائلتي محافظة لدرجة جيدة نوعا ما، كنت كذلك لفترة طويلة ، فترة كافية ليكتمل بها عقلي و تكتمل معه أفكاري، في أشد لحظات ضعفي أقوم ب مخاطبة الله كالمجنون دون أنا أخاف أو أتريث في أي كلمة مهما كانت حدتها، فالمجانين هم الوحيدون الذين يرون الإله على حقيقته لذلك يتحدثون عنه بكل جرأة دون اي مخافة من اي عقاب،

لما يخافونَ و هم الذين سلبوا وجودهم و أحبائهم و كل الأمور الجميلة التي كانت تملئ حياتهم و تُركوا وحيدين بلا قلوب تحتويهم.

ها أنا ذا أنتظر ساعة الرحيل الأخيرة أنتظرها و أنا لست بكامل قواي فجسدي منهك يميل للتراب و يحنو نحوه و عيناي مريضتان بالنجوم، نعم تلك النجوم التي أراها الآن في هذه العُتمة التي تملئ هذه المدينة، أستطيع أن أراها بكل وضوح و كأنها أجساد من رحلوا تناديني من بعيد كي أقترب منها.

هل يمكنكِ يا أمي أن تتخيلي بأني لا أستطيع أن أشيح ببصري عن النجوم، حتى لو اردت شرب الماء تناولت الكوب دون ان أنظر إلى مكانه أكتفي بتحسس مكانه بهدوء كي اقبض عليه خوفاً من أن يقع و يقطع حديثي مع النجوم.

لم أعلم كم كان قد مضى من الوقت في تلك الليلة، لكني أعلم ماذا حدث لروحي المتعبة و المثقلة شوقاً لمن رحلوا عني و مَن رحلت عنهم، و للغياب شريعة ظالمة بحق المنسيين في خلوات ذكرياتهم.

نمت بعد كل هذا و أنا جاثٍ على ركبتي الذاكرة، نِمت و أنا أعانق أطيافهم التي لم تتركني للحظة في تلك اللحظات و كأنها تُجهزني للرحيل و للقاء.

نهضت بعد مدة قصيرة من لحظة سقوطي قبل الأخير، نهضت على أتصال الرجل الذي سيقوم بنقلي إلى الريف الشمالي حيث عمي و عائلته، رددت عليه بسرعة و كأني نهضت لحظة إتصاله و كأني كُنت أنتظره في أحلامي كذلك و لا أعلم لما،

أجبته :مرحبا بك سيدي كيف حالك

قال لي و الضجيج حوله كان واضحا :أهلا بك يوسف، سأكون عندك خلال مدة أقصاها ساعة فتجهز لا أريد أن تنسى شيئاً.

قلت له و أنا أنظر من حولي ك التائه الضائع الذي لا يدرك ما يقول :أنا أنتظرك.

أنهيت المكالمة معه و هممت نحو الخزانة أجمع ملابسي و أضعها في حقيبتي ، لم يستغرق الأمر أكثر من ربع ساعة لأحزم امتعتي.

لكن كيف لك يا يوسف أن تحزم أمتعة قلبك و ترتب أفكار عقلك التي أصبحت ثقلا يُزاد على ما بك من ثِقل، كيف لك أن تغادر و تترك كل شيء ورائك،

نعم كل شيء، هل لديك القدرة على ذلك

أجبت نفسي بكلمة "لا"

إذاً سأترك جزء من قلبي و أحزاني هنا، سأدع البعض أو الكثير حيث أمي تكون.

أنهيت حَزم أمتعتي ثم علقت حقيبتي على كتفي و هممت بمغادرة غرفة إقامتي و عندما وصلت للباب

توقفت للحظة و كأن شيء ما كان يناديني، نظرت للخلف تلفت يمنةً و يسرة لم أرى شيئاً، لم أنسى شيئا، يبدو أن ذلك الصوت لم يكن من زوايا الغرفة، لقد كان مصدره زوايا ذاكرتي، لم أفهم الكلمات لكني شعرت بشيء يقبض على صدري، كان شعوراً يشبه في ألمه جسداً منهكاً إخترقته ببطئ سكين مهترئة قديمة ، أو قد يشابه شعور رجل تاه في صحرائه ملاقياً حتفه و هو زاحف نحو سرابٍ يظنهُ ماء و لا يدري أنه يمضي نحو حتفه، كانت الصوت مفرداً و أحيانا مجموعة أصوات لأُناس أعرفهم، أناس قد رحلوا، هل كانوا يسمعون نفس هذه الأصوات قبل رحيلهم، هل أنا أصبحت منهم،

لا أزال أستذكر كلمات أبي لي قبل عشر سنين " يا بُني نحن لا نختار قرار مجيئنا لهذا العالم لكننا سنكون مسؤولين لدرجة كبيرة عن قرار رحيلنا، نعم نحن نختار قرار رحيلنا عندما نجعل من بقية حياتنا جسدا مريضاً يطفو على الذكريات و الأحزان التي خلفها لنا أحبائنا الراحلون عنا"

لما لم أتذكر كل هذا و بهذه الطريقة المحزنة قبل أن أبدأ، لقد نسيت أن تقول لي يا أبي بأننا عندما نقرر ذلك فإننا لا نعي ما نفعل و بأننا قمنا بتخدير عقولنا لفترة جيدة كي لا يعي ما يحصل لروحنا من مرارة و ألم و تعب، و مع ذلك أحب أن أعتذر منك يا أبي فأنا لم أستخدم نصائحك جيداً في وقتها، لقد تذكرت كل شيء عندما أصبحت وحيدا في هذا الليل الطويل الذي لا ينتهي.

لم يعُد لي شيء هنا، ألقيت النظرة الأخيرة لهذا المكان الذي عَلِم عني الكثير، عَلم عني أشياء حتى أقرب المقربين لا يعلم بها، غادرت هذا المكان و مازالت الضجيج مزدحما في داخلي المبعثر.

جلست على أحد المقاعد الموجودة في صالة الإنتظار و أنا أترقب الطريق المحاذي للنُزل و أشاهد المارة من خلف زجاج الصالة،

كان الزجاج نظيفاً و لامعاً يتيح لمن هم بالداخل رؤية أدق التفاصيل في الخارج، كُنت أرى رجالاً و نساءاً يهرولون في هذا الطريق و كأنهم أضاعوا شيء ما و كأنهم يبحثون عن الحياة و الموت معاً في هذه المدينة التي أصبحت بائسة حالها كحال أي شيء في بلادي، يبدو أنني من خلف هذا الزجاج أستطيع رؤية الكثير إن دققت في تفاصيل وجه أحد المارة، و هذا ما استطعت أن أراه في وجه شيخ كبير قد تجاَوز السبعين من عمره يرتدي ثياب رثة، كان نحيل الجسد، حاني الظهر، وجهه تملئه التجاعيد و التفاصيل التي رأيت من خلالها الكثير، رأيت من خلاله شابا وسيماً أسود العينين يحمل الورود في قلبه ليوصلها لحبيبته التي تشتاق لرؤية هذا الوجه الباسم، رأيت فيه عمراً طويلاً ضارب في أعماق الزمن و رأيت فيه كذلك تاريخا كتاريخ هذه المدينة الجميل و رأيت فيه حالاً يُشبه حالها الآن و هي حزينة، لكن أثر الفراق الواضح في وجهه طغى على كل تلك الصور، هل كان مفارقاً لحبيبته التي تركها في أرض الأموات أم يبكي ماض وردي اللون غيرت أحداث هذا الزمن لونه إلى اللون الأحمر، لا أعلم مما تعاني آيها الغريب لكن صدقني رأيت نفسي فيك و بكيت نفسي بعد ذلك لأني سأكون في يوما في حال لا تخالف حالتك هذه إن لم تكن أشد قسوة.

ليتني أستطيع إيقاف عجلة الزمن، لا أريده أن يمضي، لا أريده أن يقترب من النهاية، لا أريد أن أكبر و أن أضعف لهذه الدرجة، لا أريد أن يمتد بي العمر كثيرا فهذا يعني أني سأفقد أخر الأمور الجميلة في حياتي الحزينة هذه، سأفقد أمي و سأفقدك

لم أمّل في رسائلي الورقية التي كُنت أرسلها لكِ و منزلك لا يبتعد عن منزل عائلتي أمتار، لم أمل من ذكر كلمة "فديتك" هذه الرسائل التي كانت تشبه في بداياتها و نهاياتها رسائل الاطفال الاولى و تشبه في مشاعر أشخاصها مقتطعات من أشعار و جميل ب ليلى و جنونه و ومضات من هيام قيس ب لبنى،

كانت تشبه شيئاً من الحُب و شيئاً من التاريخ حيث بدأت معك، صحيح أنني كُنت أفتديك بأغلى ما أملك في أيام رخاء حُبي، لم أكن أعتقد أنني سأصل لهذه الدرجة من الفداء يوماً،هل سأكون مسيحاً آخر في هيامي بِك، هل سأصلب على أبواب قيامتي الآخرة أم أنني كنت مبتدعاً بعشقي لك بدعة جديدة في الحُب، هل سينكر علي الحلاج حُبي و توحدي بِك و سيقوم بإحراقي على أبواب المساجد و هل سيلومني و يتبرأ مني السهروردي الذبيح على إفراطي في البحث عنك و يقتلني في مجالس السجون بترك روحي تتعفن و هي تنادي بإسمك.

كانت هذه الدقائق التي مرت كافية لأحد ما أن يعيش دهراً ليقرأ ما بها و قد يحتاج البعض دهوراً و أنا أحدهم لكن لولا وصولي المتأخر ل عينيكي لكان حالي يشبه الغنم في الليلة المطيرة الشتية، لكُنت تائهاً ضائعا في هامش ذاكرة الأحياء لا يُعلم من أنا، لولا إيماني بك لما أستطعت كتابة سطر من سطور مقالتي بك و لكانت طُرُوس المنسي ممحية لا أثر عليها لأي شيء و لن تنفع من حاول إِقْتَرَائها بشيء ستكون صحائف منسية لإشعال المدافئ و لإلهاب ما تبقى من عجلات العربات القديمة في ساحات الحركات الإحتجاجية الطلابية ضد هيئاتها التدريسية، ستكون لفافات ورقية تجدونها في محال بيع الوجبات السريعة في تلك السهول الشمالية الشرقية، صدقيني أتمنى هذا أن يحدث إن وصلت إليك و عُدت بالخيبة، تذكرين رسائلي القديمة لك التي كنت أُضمن سطورها دائما بعبارة "لا تقتلي الأمل بي مرة أخرى بعد أن مات في سنين خلت و أخرى أتت" لكن الحقيقة أقول لكِ لا أضمن بأنكِ تذكريني أصلاً، و هل للمُسجى مكانٌ في قائمة المصلين عليه.

لم يأتي الرجل على موعده المنتظر و هكذا هي مواعيد رجال الشرق، مواعيد تتحدث في دقة تطبيقها عن مصداقية الرجال،

مضت أكثر من ساعتين و لم يأتني منه شيء، لم يتصل و لم يرسل حتى رسالة، أخذت هاتفي النقال المرمي على الطاولة و قمت بالإتصال به، أجابني و هو يحدث شخص أخر انا قادم يوسف لكن حدث معي أمر أجبرني على التأخير،

قلت له :لا بأس عليك أنا أنتظرك في صالة الإستقبال التابعة للنُزل

قال لي : لا تغادر مقامك بحلول وقت قصير سأكون عندك.

أغلقت الإتصال به دون أن أعبئ لما قال، لم أرد لأي أمر أن يعكر صفو ذاكرتي الآن و خصوصاً و أنا أظنها تحتضر.

قَدم لي أحد موظفو النُزل في الصالة كوباً من الشاي كان هذا الكوب السادس الذي أشربه، في كل كوب كانت تأتيني الذاكرة بشكل أخر مع شخص مختلف و كأن بتجديد الكوب كانت الذكريات تتجدد مرة أخرى، أقلب أمري بين قلبي و عقلي، أقلبه و أقول كل شيء يقودك نحو العودة لا تتقدم أكثر، عمي لم يخبرني عن هذا الرجل الذي سيقوم بنقلي إليه و من ثم إلى تُركيا لم يخبرني عنه بمحض الصدفة، أنا متأكد بأن أمي لها يد في هذا، يبدو أن كل ما حدث مع عائلة عمي و من سفري المفاجئ كان مخطط له من قِبل أمي بعناية إلهية، أعلم يا أمي بأنك إن أردت شيئا سيحدث لأن الله يُحبك كثيراً.

نظرت مرة أخرى إلى اللوح الزجاجي الذي يريني العالم الصغير الذي أمامي بكل وضوح لكن من دون أن يحوي ألوان البهجة، يبدو أنني لم أعد أملك القدرة على رؤية الحياة و لم تعد لدي القدرة عليها و ما هي إلا حركة واحدة للنجوم لأتحول إلى غبار كوني يهيم في الفضاء.

فيما أنا أُقلب ناظري في هذا الزحام الكوني الصغير الذي أمامي حتى دخل رجل الصالة يبدو من ملامحه بأنه قد بلغ الأربعين من عمره يرتدي سترة بيضاء اللون و نظارات تعاكس لون سترته،

ما كدت أتميزه كثيراً حتى أخرج جواله النقال من جيبه ثم بدأ يقلب به و أجرى إتصالاً ليرن جوالي النقال، فتحت الإتصال فكان هو الرجل المنشود، وقفت كي أناديه لأنه لم يكن يرى مكان وجودي جيداً، ناديته بصوت خافت أنا هنا يوسف، إلتفت إلي مبتسماً مشيراً بجواله و هو يحمله بإشارة حسنا، تقدم نحوي و عندما أصبح في موقع مواجه لي تصافحنا و دعوته للجلوس و طلبت من أحد موظفي الصالة بأن يجلب له كوباً من الشاي.

أُدعى أبا طارق بإمكانك أن تناديني بهذا الاسم كي لا تبقى مشوش الذهن و أنت تفكر بالاسم الذي تناديني به.

سألني إن كنت ابن أخيه للعم أبا نجوى حقيقتاً أم فقط صلة قرابة عادية، أجبته بأنه أخ أبي من أم و أب، حدثني كثيراً عن عمي و قال لي بأنه يعرفه منذ مدة طويلة و تعتبر العلاقة بينهم علاقة قريبة للعلاقة التي تربط الأصدقاء، كان كلامه باعثاً للراحة المؤقتة لي، أي على الأقل لن أعاني من مشاكل في الطريق، لقد كان حزيناً جداً لما حدث ل عمي و ما ألت إليه الأمور و خصوصاً بعد دمار منزله، قاطعته منهياً هذا الحديث الذي لا يَجلب سوى المتاعب "قدر الله وما شاء فعل" ثم أردفت هذا ما حدث في معظم البلاد، لكن أريد أن أعلم كيف ستكون الرحلة و كم سوف أستغرق للوصول إلى المكان الذي يتواجد به عمي، أجابني و هو يلتفت لجنبات المكان بعينيه و بعد أن تأكد من عدم تواجد أحد في الصالة، ستكون الرحلة قصيرة لن تتجاوز العشر ساعات و هناك مشي على الأرجل لمدة ساعتين ستكون في النقطة الفاصلة لكنك ستمضي معظم الوقت في منزل على الحدود الفاصلة ريثما تحجب السماء نورها لنستطيع التحرك، لا يوجد أي أمر يدعو للخوف، المئات يعبرون يومياً من هذا الطريق فقط علينا الإتكال على الله و سيكون كل شيء على ما يرام

أنهى أبا طارق شُرب كوبه بسرعة ثم أومئ برأسه لي بإشارة تحمل في معناها "هل أنهيت أمورك هنا" لم أتحدث إنما كانت اجابتي له بالإيماء "نعم"، ليقول بعدها هيا بنا، كان يسير أمامي بخطى هادئة بينما كنت أخذ أنا وضعية المرتاب الخائف الذي لا يعلم و لا يجيد شيئاً، صعد سيارته التي كانت من نوع hellux دفع رباعي، لا أعلم ان كانت كتابتي لاسمها صحيحة، ثم أدار محرك السيارة و فتح لي الباب الأمامي لأصعد واضعا حقيبتي تحت قدمي بطريقة بدائية نوعا ما، و هو يتحرك بسيارته نحو الطريق العام قال لي :سنذهب لمكان قريب لنأخذ باقي المجموعة، كان كلامه جميل جعلني أبتهج لأني على الأقل سأحضى بصحبة في هذه الرحلة، و ماهي إلا لحظات حتى أعتلى بسيارته ظهر الطريق السريع الذي سينتهي بنا إلى أطراف المدينة ،كانت سيارته من النوع الحديث، كنت أشعر أننا نقطع في الدقيقة عدة كيلومترات من شدة سرعة السيارة، لقد كنت جالساً على الريح حيث لا وجود سوى للريح العابرة و لا وجود سوى للعابرين.

كانت القيادة على هذا الطريق السريع بهذه السيارة تشبه إلى حد ما المصارعة لكن الكفة كانت تميل للسيارة التي أمعنت في إذلال الطريق دون أن يستطيع أن ينال منها او يترك بها خللا أو عطلاً، بقي أبا طارق يسير بهذه السرعة لينحني بفُلكه على احد تفرعات الطريق السريع اليمنى و يدخل طريقا فرعياً نحو أحد أحياء المدينة المتعبة، نعم كان حياً متعباً، فعندما أخذت أنظر إلى الابنية المتواجدة على أطراف الطريق ظننت لوهلة أني دخلت مدينة ستالينغراد أو برلين أثناء الحرب، لم يكن هناك أي علامة يُحس بها تدل على أن هذا المكان مأهول بالحياة، لم أستطع أن أرصد أي شخص في هذا المكان حتى ظننت أن أبا طارق قد أخطأ في المكان ،لكني لم أسأله،

فأنا لم أرد أن أظفي شيئا من السياسة على أحاديثي الأخيرة في هذه البلاد.

لم تكن أعمدة المنازل منتصبة، أنين النوافذ المنغلقة على نفسها ألماً يملئ المكان، لم أستطع سماع شيء في تلك اللحظات سوى نحيب الأبواب المنهكة و المحنية نحو الأرض، تلك الأبواب التي أجبرت على السجود لغير رَبها الأول، لم أرى المآذن تقف عزيزة كانت منكسرة مخذولة باكية و لم يكن حال مساجد تلك الأحياء سار للناظرين، و كأن الصورة تغيرت و كأن الألوان لم تعد مفعمة بالحياة أو أن الرسام الذي إبتسامة هذه البلاد هوى على الأرض صريعاً لشيء ألم به لتعبث ريشته خراباً في اللوحة ، كانت صرخات الراحلين الصامتة تصفر في مكان موحش لا يمره سوى الأشباح، الأشباح فقط مع ذكريات حزينة و قصيرة، هل سيعود من ذهب، هل سَتُعانِق أصواتهم أتربة الماضي، أم أن الوقت قد نفد منهم كلهم، هل نفد من الأشباح التي ترتدي ذكرياتها الأولى، أم من غُبار هذا الوقت ، و برود الدموع التي تجمدت و هي في منتصف الطريق ،استمر أبا طارق في السير و أنا كذلك كنت أرى مع استمراره شيئاً من ماضي هذا المكان و حاضره و مستقبله و إن كانت الأخيرة فيها من المبالغة الكثير، أي مستقبل لمنزل خاوي على عروشه منذ سنين، أيعقل أن يكون المستقبل في الأطلال المهزومة أم في آثار من وطئت أقدامهم قدسية هذا المكان، تلك الآثار التي لم تدرس رغم كل ما مر عليها من أهوال، أهوال أزالت الإنسان لكن لم تستطع إزالة اطلاله.

لا يمكن للغزاة الجدد محو سجلات القادمين من الآخرة، الذين سيأتون ليعيدوا وضع أقدامهم في مواضعها الأولى، لا يمكن للغزاة الجدد العيش هنا فرائحة المكان لا تناسب ذكرياتهم، صحيح أن الذين عاشوا هنا رحلوا و هم حاملين إنكساراتهم لكن يوما ما سيعودون ليصلحوا قلوبهم هنا حيث الملاذ الأخير.

من الصعب أن أرى كل هذا الانهيار، كل هذا البؤس و كل هذا الحنين دون أن أحيي وصلة صغيرة من الذكريات في داخلي.

توقف أبا طارق بطريقة مفاجئة و مرعبة و لا أعلم إن كان فعلاً قد توقف فجأةً أم أنه مهد لذلك الوقوف دون أن أنتبه و ذاك لأني كنت في جانب آخر من الحياة. ترجل أبا طارق عن سيارته و قال لي من خلف الزجاج : لن أتأخر كثيراً، إنتظرني.

انطلق أبا طارق راجلاً نحو اليمين مُتجهاً نحو فناء صغير ليختفي بعدها تاركاً مهلة قصيرة لي في توقع سير الأمور و ما ستؤول إليه، جُلت بناظري حول المكان الذي توقفت به سيارة أبا طارق.
كان حياً هادئاً قليلون هم المّارة فيه، كان طريق الحي ضيق نوعا ما، لم يكن يتسع لأكثر من سيارة للمرور و مسافة صغيرة للمشاة، كانت بعض جدران المنازل مصدعة مهترئة ،كانت أبنية قديمة قد أكل عليها الزمان و شرب و للحرب كذلك نصيب من هذا.

إن الصمت و السكون الذي يبدو علي قد لا يعني أنني هادئ بقدر ما يعني أني مضطرب و مرتاب من الداخل، لكني مع ذلك أحب تلك اللحظات التي أكون فيها هادئاً لا أتحدث إلى أحدهم، فأنا لا أجد نفسي حياً إلا عندما أكون في حالة أستطيع فيها سماع تلك الانفجارات التي بداخلي، تلك اللحظات تستطيع إعطائي كل ما أريد من القدرة لتذكر ما مر بي و مأ أمر به، كل الأمور مررت بها و نجوت إلا أنتِ مررتِ بي و لم أنجو بعدها ،كل الفراغات التي في قلبي إستطعت أن أملئها إلا تلك الفُتحة الصغيرة أعلى القلب لم تمتلئ خلال سنين غيابك ،كلما حاولت ملئها و نسيانك، وجدت نفسي فارغاً من كل شيء، منذ ذلك الوقت توقفت عن الاقتراب من تلك الفُتحة و حاولت البقاء على فراغاتي الأخرى ممتلئة ،

هل تعلمين بأن كُل الامكنة التي لامستها بيدي و رأيتها بعيني و احتويتها بداخلي كان تحمل شيئاً منكِ

عاد أبا طارق من نفس الإتجاه الذي ذهب منه، عاد و بصحبته شابين في العشرون من العمر، توقفوا قليلاً خلف السيارة ثم بدأ أبا طارق بالحديث معهم و كأنه كان يشرح لهم شيء ما، قد يكونوا يريدون الخروج معنا و يعطيهم بعض النصائح، اكتفى الشابان بالاستماع ل ابا طارق دون أن يتحدثا ببنت شفة، أنهى أبا طارق حديثه معهم ثم أشار بيده لهم بأن يصعدوا في السيارة، صعد الشابان من الخلف، و تبعهما أبا طارق، ثم قال لي أعتذر على التأخير لدينا مشوار صغير لنصحب ثلاث شباب معنا من ثم سنبدأ الرحلة، لم أبدي أي امتعاض و قلت له لا بأس عليك.

أنطلق أبا طارق بسيارته متجاوزاً هذا الشارع الضيق والمخيف الى شارع أكبر منه ثم ما لبث حتى أصبحنا على الطريق السريع، كنت أراقب الشابين بالمرأة التي تقع في منتصف أعلى السيارة مختلساً النظر نحوهم كل ما أتيحت لي الفرصة، كانا خائفين يكثران التلفت و كأن الموت يلاحقهم، لم يتحدثا مع بعضهما البعض إنما اكتفيا باستراق النظرات نحو بعضهم و لا شك أنهما لا يعرفان بعضهما، إنما ألزما بالتواجد في نفس المكان، جميعنا لم نرغب بهذا و كل ما يجري لم يكن مخطط له و كل ما حدث في هذه البلاد لم يكن ليحدث لو كان لهذا الشعب قرار فيما حدث، بلادنا شاخت و أصبحت منهكة و لم تعد قادرة على احتمال كل ما يجري، لم أكن أرى شيئا من حلب التي كنت أسمع عنها في كتب التاريخ و قصائد الشعراء و قصص الحب و أحاديث الكبار، لم أرى شيئاً و أنا على متن هذه المركبة الاخيرة التي سأستقلها في أخر بقاع بلادي، كان الطريق الذي تسير عليه السيارة مرتفعاً بحيث كنت أرى المدينة كاملة، و كأني أطير فوق سمائها،

أكثر من نصف ساعة و نحن ندور حول هذه المنطقة السوداء التي لا يرتفع منها سوى سحابة من الدخان الأسود، ذاك الدخن الذي يُنذر و يشير إلى وصول أرواح جديدة إلى السماء و أجساد صغيرة متفحمة تحت ذاك الركام،

لازال أبا طارق يقود سيارته على ذلك الطريق متجهاً إلى مكان لا نعلمه، مكان آخر ليأخذ منه دفعته الأخيرة،أخبرني بذلك أثناء سيرنا، عندما قال لنا و نحن في السيارة :

لن نتأخر كثيراً، هناك فتية آخرون سنأخذهم معنا كي لا تشعروا بالملل أنتم الثلاثة أثناء رحلتكم، أنهى حديثه ب إبتسامة جافة و باهتة مثيرة للشفقة، بعض الأشخاص عندما يريدون أن التظاهر بالدماثة و الظرافة يتحولون ل أشخاص مثيرين للشفقة، أبدى الشابين الجالسين في الخلف إبتسامة باردة و جافة، لم أُعر سخافة أبا طارق بالاً و تابعت صمتي الذي بدأته مذ غادرت أمي، تابعت صمتي بصمت و مع القليل من الذكريات الفاترة، كل هذا و أنا منطلقٌ ببصري نحو كومة من الحجارة تسمى مدينة حلب، لا أعلم ما الذي بقي من هذه المدينة بعد كل هذا الصراع الطويل مع الخراب الذي حل بها، هذه المدينة لن تُبنى مرة أُخرى، جميع المدن التي عانت من ويلات الحروب فقدت أبنيتها الشاهقة و فقدت حدائقها و فقدت نظامها و حكوماتها، لكنها لم تفقد التراب الذي بنيت عليه، أما هذه المدينة فقدت كل شيء و لم تعد تملك شيئا، فقدت الماضي الذي تم محوه ب أقدام القادمين الجدد، هي القلعة التي تركها أبنائها أطلال خَربة مبعثرة منسية ورحلوا إلى بلاد أخرى ليبنوها و يثبتوا في تلك البلاد التي لا ينتمون لها بأنهم مواطنون صالحون مُتألقون رغم آلامهم و أحزانهم التي يدعونها، تركوا خلفهم وصمة خزي ستبقى تصارعهم حتى قيامهم الأخير و سيورثون هذا البؤس الذي يتدفق من عروق أفئدتهم الرخيصة لأجيالهم البائسة اللاحقة،

تم بيع كل شيء في هذه المدينة المسكينة حتى التراب تم بيعه، شاهدت هذا أثناء رحلتي بها و أنا أرى في كل شارع راية ترفرف لمجموعة من الشياطين.

لم أستطع أن أحتفظ بشيء جميل في ذاكرتي عن هذه المدينة، لكن عندما يتم ذكر هذه المدينة على مسامعي لن يتبادر إلى ذهني و لن أشعر سوى ب شعورٍ واحد آلا وهو شعور الأم المرهقة و عقوق ابنها الذي باعها بثمنٍ بخس مقابل وهم بيع له.

إنعطف أبا طارق بسيارته نحو أحد الطرق الفرعية المتصلة بالطريق السريع، ليدخل بذلك حي جديد منفصل تقريبا عن المدينة و يقع في الجهة الشمالية من حلب، كانت أبنية الحي ذات طراز معماري بدائي أو ان صح القول كان حي عشوائي، عشوائي في الأبنية و في الطرقات المؤدية و المتشعبة منه وإليه، الحقيقة كان حياً عشوائياً في الوجود، جاس أبا طارق بسيارته هذا الحي مسافة لا بأس بها، ثم تمهل في سيره ليقف أمام فناء صغير، أو كما يُدعى هنا ساحة، كان في منتصف هذه الساحة المتهالكة و الوعرة التي تشبه في حالها حال من يمر بها كان في منتصفها صنم صغير لأحد زعماء هذا الوطن، توسط هذا الصنم ساحات كثيرة في هذه البلاد بل لا تكاد تخلو ساحة أو حديقة من هذا الصنم، لطالما كانت نفسي تحدثني عن فلسفة وجَود هكذا هياكل في ساحات عامة و ما الغاية منها، فهي لا تملك أي مدلول أو موروث ثقافي أو حضاري، إذاً ما الداعي ل وجودها، هل هي إحدى طرق الأنظمة الديكتاتورية لترسيخ فكرة القائد الأوحد و المُلهم، القائد الذي قاتل المحتل و نشر العلم و الفضيلة، عدو الظُلم الأول و المنهي للفساد، ترسيخ لفكرة القائد المعلم و المقاتل و الطبيب و الإمام، و الباحث...هل ستبقي هذه الطريقة مجموعة القطعان البشرية التي تحكمها هذه الأنظمة ستبقيها في حالة جمود عقدي و فكري و سياسي

حيث تتوقف حياة الأحياء و ذكرى الأموات عندما تُرى صورة الزعيم الخالد في إحدى المباني الحكومية أو الخاصة و في المنازل و حتى في المساجد تُرسم لنا سطوته و قوته و مراقبته لنا من خلال النصوص الدينية الي تم تأويلها لتناسب شهوته في الوجود و البقاء في كل مكان و زمان، كان الرعب يملئ قلوب جميع الذين يُذكر أمامهم ذلك الاسم، و إن ذُكر تَرضى الجميع عنه، تلك الأيام التي يتم تداولها الآن بين الناس للتندر و لذكر تلك المرحلة التي كانت مملوئة بالخوف و الأمان و كأنهما أمران متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، لا ننكر جميعنا ذلك فعلى الرغم من إن قلوبنا كانت مليئة بالخوف كنا نعيش بأمان لا يخشى أحدنا على نفسه و أهله و داره، أبي كان دائما يُسمعني بنصائحه السياسيةَ و منها "يا بني لا تتحدث في السياسة كي تبقى أمناً هنا و تستطيع العيش، حتى و إن تعلق الأمر ب شأن دولة في أمريكا الجنوبية لأنك لا تعلم تبدل احوال الدول و مواقفها لأن رأيك في هذا قد يُؤخذ عليك يوما ما"

بعد أن توقف أبا طارق بسيارته على إحدى جنبات الساحة جال ببصره في كل زوايا المكان، أطلت النظر في عيني أبا طارق و راقبتهما و هما يترصدان ما يريد كانا كعيني صقر في كبد السماء و هو يراقب فريسته التي تتستر خلف الحشائش محاولة إطالة الزمن بينها و بين لحظة الفناء الأخيرة، و بعد عدة دقائق أقفل أبا طارق زجاج السيارة، و تفقد بعض أشياءه و قال و هو يهم بالنزول، سأعود بعد قليل، لا ينزلن أحدٌ منكم السيارة إلا لشيء ضروري و ليعودن بسرعة،توقف أبا طارق أمام السيارة بعد أن ترجل منها واضعاً يداه على خصره و هو يلتفت يمنةً و يسرة، لكن لا جدوى لم يجد ما يريد، مشى تقريبا أكثر ثلاثون مترا ثم إتجه نحو اليمين، كان الصمت يسود المكان و إكتفينا نحو الثلاثة بتبادل النظرات بين الفينة و الأخرى، كان الحذر بادياً على الجميع، لا أحد يريد الحديث، لا أحد يريد البقاء هنا، هل هو الخوف،

و بعد فترة قصيرة تحدث الشاب الذي كان جالساً خلف أبا طارق لصاحبه، إن شاء الله سيمر كل شيء بسلام، و ننتهي من هذا بسرعة يا سامي، رد عليه سامي و قال له بصوت متعب و منهك، لقد رأيت كل شيء سيء في هذه البلاد و لن أرى شيئاً اسوء، لم أصل إلى هذا المكان الذي تراني حبيساً فيه حتى عانيت أمور لا تخطر لبشر، في المكان الذي أعتقلت فيه قبل أن أقرر الرحيل، دفعت من عمري الكثير يا أيمن و أنا مؤمن بأني لن أعيش عمراً طويلاً، رد عليه أيمن و الريبة بادية على وجهه كيف ذاك،

أجاب سامي :هل تقصد العبارة الأخيرة، أجاب أيمن :نعم

أجابه سامي بغصة لا تصيب إلا كبار السن و قال :لقد إستنفدت كل شيء فجسدي لم يعد كما هو، قلبي متعب و كأني في التسعين من العمر، جسدي لا يملك تلك القوة التي كنت أملكها سابقاً، صدقني يا أيمن روحي متعبة و أشتاق لجوف الأرض كثيراً لأني لا أعتقد أني سأجد الأمان و الراحة على ظهرها، الأشهر التي خلت سلبت مني الكثير و لم تبقي لي شيئاً لما هو آتٍ من أيام، ثم توقف سامي عن الحديث و بدأ بالبكاء، لم يعلم أيمن كيف يتدارك الأمر و أكتفى بمواساته بعينيه الحزينتين، و بمقولة لا تحزن يا سامي فالأيام القادمة ستكون جميلة ثق بالله فقط و أصبر لحكم ربك وأجمع ما تبقى من قوتك فأنت بحاجتها الآن

نطقت بأولى كلماتي للمواساة، لا تبتئس يا سامي فكلنا مررنا بما مررت به، لكن كلٌ يرى أن معاناته لا نظير لها، فنحن لم نلتقي هنا للتسلية أو لأننا مررنا بصغائر الأمور و لم نحتملها و قررنا الخروج من هذه البقعة البائسة، لقد مر كل منا بحال يصعب تحملها، أعلم أن ما مررنا به و نمر به صعب جداً لكن قل لي ما الذي نستطيع فعله و لم نفعله كي لا نصل إلى هنا، و إن أردنا أن نصيب عين الحقيقة

فلا أنا و لا أنت و لا هذا الجالس على شمالك و لا الناس الذين نراهم على طريقنا كل يوم لهم دخل فيما حدث و يحدث

لقد أُريد لهذه البلاد أن تتوقف عن الحياة و تقف على نقطة بين الجحيم و الحاضر، كلنا يعلم ما يحدث في هذه المدينة و غيرها منذ سنين و كلنا يدعي معرفة سبب ما حدث، لكن للأسف في النهاية اكتشفنا أننا لا نعلم شيئا عن كل هذا الذي يحدث، يا سامي نحن قناع الجُناة المزيف، الذي أحرق و أهلك و دمر و قتل دون أن يعي فعلته، لو كنا أمة مُدركة للأمور ولديها القليل من الإلهام و شيئاً من عبر التاريخ المندثرة لما وصلنا إلى ما وصلنا، كُنا كلنا ابن العلقمي الذي سلم مفاتيح مدينته للغزاة، و بكى بعد ذلك على ما فعل، بكى حين رأى أن كل ما بُني في قرون قد دمر، دمرته آلة الغزاة التي مكن لها ابن العلقمي و أشباهه في كثير من المواقف، و ها نحن ذا نبكي كما بكى غيرنا من الذين لم يستطيعوا المحافظة على تاريخهم و عراقتهم و وجودهم و أصبحوا مشردين في كل أرض تطئها أقدامهم، و الأمر الأكثر حُزناً أننا قبل أن نصل لهذا المكان بدأنا نشعر بأننا غرباء في منازلنا و في أحضان أمهاتنا، كل شيء يخنقنا، آلا تشعر بإهتزاز الأرض من تحت قدميك، آلا تشعر بأن قلبك في لحظة ضجيج دائمة، أصوات الطائرات في السماء و هي ترمي بحجارتها المشتعلة نحو الرعاة في البادية الشرقية و الذين لم يعرفوا شيئا عن المدينة و لا عن أهلها و المدافع التي تعتلي الجبال مصوبةً فَوهاتها نحو المنازل التي لم تنتهي من نحيبها الأخير بعد، إن صور الضحايا لن تبرح قلوبنا حتى نصبح جزءا من تلك الصور، هذا ما أورثته الحرب لنا و سيبقى هذا الإرث معنا حتى لو وصلنا إلى قطبي الكرة الأرضية كذلك هناك سنشعر بأن الأرض تهتز من أسفل أقدامنا، لن نشعر سوى بالبرد الذي يملئ قلوبنا الآن.

كان الضجيج الذي في قلوبنا قوياً، كان بمقدوري سماع صوت الضجيج الذي انتشر في قلب سامي و النحيب الهادئ في عيني أيمن، هناك شيء ما قد يكون صغيراً ان حدث سيجعلنا ننفجر بالبكاء جميعاً قد تكون كلمة ينطقها أحدنا أو مرور عابر من جانب السيارة أو ذكرى حزينة ، و لم تمضي لحظات ليوقف أبا طارق بقدومه و مسيره نحونا هذا الضجيج، كفكف كلٌ منا أحزانه و تظاهر بالعفوية و الهدوء، فتح أبا طارق باب سيارته وبعد أن ركب أغلق الباب بعنف و بدأ يتلفظ بألفاظ بذيئة لن أبالغ إن قلت بأنني أسمعها للمرة الأولى، أدار محرك السيارة و قادها بسرعة جنونية في هذا الشارع الذي لا يحتمل أي ضجيج غير عادي، لم أرغب في سؤاله عما حدث معه حتى تهدأ نفسه، لكن هكذا نوع من البشر قد لا يحتاج للسؤال لأنه سيتحدث بكل شيء، فهذا الصنف لا يحزن و لا يخفي كلامه و حزنه في قلبه، لا يستطيع أن يشغل فرائصه بهذه الأمور، هذا النوع يسعى للمال فقط و لا يهمه أي شيء سواه، انعطف أبا طارق بسيارته بعد أن انتهى من الشارع المؤدي لذلك الحي انعطف بسيارته نحو الطريق العام، بعد دقائق من مسيرنا على الطريق العام نطق أبا طارق بأولى كلماته الهادئة و الحزينة عندما قال تجهزوا لقد بدأنا الرحلة و ستكونون لوحدكم يبدو أن البقية يريدون البقاء هنا و لازالوا يملكون بعض القوة للبقاء، أشحت ببصري نحو زجاج باب السيارة لأودع هذه المدينة التي كنت أظن أن رحلتي إليها ستكون الرحلة الاخيرة، كانت أحياء المدينة تسير بسرعة نحو الخلف كانت المدينة تطوى من خلفي و كذلك السماء كان كل شيء يسير بصمت، في كل نظرة ألقيها و أنا على أعتاب هذه المدينة كنت أشعر بالحزن كان هذا الحزن مختلفاً عن الأحزان التي مررت بها، لم يكذب صديقي خالد التركماني الذي قال لي في إحدى المرات على مدرجات كلية العلوم في جامعة دمشق بأن الحزن له أنواع حينها لم أعطي بالاً لكلامه كعادتي معه لكن ألقيت كلماته في ذاكرتي لعلي احتاجها يوما ما،

نعم يا خالد للحزن أنواع، شعرت بضيق في نفسي جعلني أراقب الشمس من خلال مرآة السيارة أراقبها و أنا أريدها أن لا تغيب، لا أريد أن أكون حزينا في هذا الوقت

و إقترب اليوم من طرفه الآخر و بدأت شمسه الباردة تميل نحو الغرب،و هذا ما أخشاه،كلما نظرت بإتجاه الغرب شعرت بانقباض في قلبي، شعرت بحسرة وخذلان و ذكرى تنتظر أن تكون ذكرى.

بعد حوالي الساعة من المسير و الدوران خلف الأحياء الخلفية تجاوزنا مدينة حلب متجهين نحو ريفها الشرقي، هو نفسه الطريق الرمادي الذي دخلت به أنقاض المدينة السوداء التي لم أعد أرى منها شيئاً و لن أراها ثانية، مررنا بأوائل قُرى الشرق الثكلى و الحزينة، كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساءاً في هذا الوقت ستذعن جميع أرجاء هذا الريف للظلام، كان الطقس بارداً و السماء تملئها النجوم، لا شيء يفصل هذه الأرض عن السماء، كيف ذاك و قد أصبح نصف أهلها في السماء و النصف الآخر يراقبونهم من كهوفهم الحجرية الباردة، ينتظرون شُهباً جديدة تجود بها الحكومة من السماء لتضع حداً لبردهم و شوقهم و حياتهم إن كانت تُسمى هذه حياة، من الصعب أن تُصنف ضمن الأحياء و أنت ميت.

التفت نحو الخلف للحظات لأرى حال رفاق طريق الموت المؤقتين، لقد كانا يغطان في نوم عميق، و كأنهما خارجان من معركة، قد يكونا في حالة مناجاة للموت ليتخلصا من هذا الحمل الذي أنهك أرواحهم و أجسادهم، كان أبا طارق منشغلاً بالاتصالات التي تأتيه كل حين و بالتدخين كذلك، هو الآخر يبحث عن شيء ما مختلف عن الذي أبحث عنه و عن الذي يبحث عنه الفتية القابعين في الخلف.

كنت أتسائل في الفترة الأخيرة لما لم يتواصل عمي معي، كنت قد أرسلت له عدة رسائل لم أجد رداً منه عليها، و في كل خطوة أخطوها كنت أدخل على صندوق الرسائل في الهاتف علي سهوت عن رسالة ما، أتمنى أن يكونوا بخير جميعاً، كنت أرسل كل يوم رسائل لأمي و أخي أحمد اطمئنهم على حالي و ها أنا ذا أرسل لهم و أخبرهم أني قد غادرت حلب متجهاً لقصدي و للأمر الذي أرادته أمي دائما

إنحنى أبا طارق بسيارته بطريقة مفاجئة نحو اليمين آخذاً طريقاً فرعياً بعد أن تلقى مكالمة من شخص ما، بادرته بالسؤال ماذا حدث، هل هناك شيء ما حدث، أجابني و هو يلفظ سُمً من عينيه، آتاني نبأ بأن السيارة مراقبة من قبل شعبة المخابرات يبدو أن هناك من أوصل معلومة عن رحلتنا لهم، إرتعدت خوفا فقلت له، هل سيلقون القبض علينا، قال لي هذا يعتمد على كمية الصبر التي تستطيعون عليها في هذا البرد و هذه البرية حيث ستكونون لوحدكم، أفاق أيمن و هاشم من نومهما دون أن ينطقوا بكلمة واحدة، كانوا مكتفين بالاستماع و التحديق بإذلال نحو أبا طارق و كأن عيونهم تخاطبه و تقول له، أرجوك افعل ما قُدر لك أن تفعل،لا نريد أن يمسكوا بنا و يقتادونا نحو كهوف المدينة المظلمة، آتى صوت من الخلف، صوت خافت و خائف و مرتبك، لقد كان هاشم صاحب الصوت إذ قال إن أيقنت أني سأكون في أيديهم فإني على موعد مع السماء اليوم، لن أسلمهم نفسي ،استمر ابا طارق في السير في هذا الطريق الترابي حتى وصلنا الى مكان منقطع و مخيف، مكان بين السماء و الأرض لم تصله قدم إنسان غيرنا،كان الظلام قد غطى بعبائته كل شيء صاح بنا أبا طارق و طلب منا النزول بطريقة فضة و قال امكثوا في بستان الرمان هذا و سآتي في منتصف الليل كي آخذكم من هنا، لكن إياكم أن تخرجوا من هذا المكان، فإن خرجتم سيفضح أمركم و تمسك بكم الدوريات التي ترابط في هذه الانحاء، كانت الساعة لم تتجاوز السابعة مساءاً هممنا بالنزول نحن الثلاثة

و لم تكد أقدامنا تطئ الطريق حتى أنطلق أبا طارق بسرعة جنونية، دون أن ندرك ما الذي يحدث ،اتجهنا نحو البستان و خضنا بين شجيراته حتى أستقر بنا الحال في نقطة كنا نظنها جيدة و بعيدة عن الطريق الترابي، استلقى كلٌ منا تحت شجيرة كانت المسافة بين الأشجار لا تتجاوز الثلاثة أمتار، بعد حوالي ربع ساعة ألقى الي هاشم بقطعة بسكويت و قال أدعوا الله أن لا نحتاج ما جلبنا من طعام و أن لا يطول طريقنا، كان أيمن يحدث سامي و كنت أظن أن صوته كان عالياً مقارنة بالحال التي نحنا بها و التي لا يجب أن يسمع صوتنا بها، فطلبت منهم إن انتم أردتم أن نتحدث و نتسامر لنقترب من بعض و نتحدث في الموضوع الذي نريد دون أن نرفع أصواتنا، أجابني هاشم و قال نحن معك بالذي تريد لن نرفض شيئا فيه حفاظ على سلامتنا جميعاً

اجتمعت دائرتنا نحن الثلاثة تحت احدى شجيرات الجنة، نقلب أمورنا ذات الماضي و ذات الحاضر و ذكرياتنا باسطةٌ أحزانها لو أطلع جائس علينا لولى فراراً من ريب ما رآى في هذه الوجوه الشائبة، كان رأس كل منا عند ساق الاخر جاعلاً منها وسادة لرأسه خالقين بذلك مأنسً صغيراً نتسامر به تحت شهب السماء الباردة و الصافية ،كنت مستندا بظهري على جذع شجرة رمان بظهري مائلا نحو الجهة الشمالية و أبصر بعيناي سماء الشرق البعيد ، أجبرتنا برودة الطقس أن نلزم الصمت و لا نعري أفواهنا لرياح أيسوب الشمالية التي حاولت خلع كل شيء من أجسادنا التي لا تفكر عقولها ببرودة الريح بقدر ما تفكر بما هو قادم، ما كان يعترينا هو الخوف، الخوف من أن نُخلع من هذه الأرض دون أن تنال منا الرياح شيئاً، كان الرفيقان يرتجفان من البرد محدقان ببصريهما نحو التراب و كأنهما يريدان الذوبان به، أما أنا فلم أكن أرى سوى القسم الشرقي للسماء، أراه بجماله و لمعانه المظلم، أراه بارداً رغم تلك الخيبات التي تحترق بداخله،

تحدثت مع من معي دون أن أخشى من تلك الرياح أن تملئ فمي و تُنهك عقلي بما ستدخله من ذكريات، أحداث استعصت للدخول إلى قلبي في سنين قد يكون هذا الحال فرصتها المناسبة فإن الشمس ان غابت وجدت رياح أيسوب حليف آخر لتعري به من تريد، قلت لمن حولي علينا أن نرفع بأيدينا جبال صغيرة حولنا من التراب تتسع لنا نحن الثلاث، تقينا عتو هذه الرياح التي باغتتنا فجأة و نجمع دفئ ذكرياتنا سوياً لعلنا نستطيع الصمود ،نهضنا نحن الثلاثة من أمكنتنا، قال لي أيمن كيف ذاك يا يوسف كيف سنفعل الذي قلت فهذا أمر شاق و لا نملك أي أداة تساعدنا على جرف التراب و جعله كالساتر، نظرت إليه للحظة ثم قلت له :أن نموت و نحن نحاول البقاء على قيد الحياة خيرٌ من الموت برداً، كانت أرض البستان قد فلحت منذ فترة قريبة، بدأنا بجمع التراب بسحبه بأكف الأيدي، كنا نريد جعل ما نريد صنعه على شكل بركة ماء صناعية لكنها صغيرة تكفينا نحن الثلاثة و لم نكد ننهي أول ساتر حتى أنهكنا العمل من جمع التراب و عدنا إلى مواضعنا الأولى التي نزلنا بها في البستان و العرق يتصبب منا، أسند كلٌ منا ظهره على ساق الشجرة التي خلفه ليرتاح قليلاً مفكراً فيما سنفعله

يبدو أننا غَيبنا حيلة عن أنفسنا في بناء هذا الهيكل الترابي كانت ستختصر علينا الكثير من الجهد و الوقت هذا ما قاله هاشم و هو مسنداً رأسه محدقاً ببصره نحو أجواز السماء، سألته بعد أن استدرت إليه مميلاً جسدي جهته مريحاً كتفي على ساق الشجرة التي خلفي و قلت يبدو أن هذا الفضاء الواسع النقي بنجومه اللامعة يطري و ينقي أدمغتنا للإتيان بأفكار جديدة ب اعتقادي لو بقينا ساعات قليلة في هذا المكان و نحن نراقب نجوم لعلمنا عن مصيرنا و عرفنا كيف ننجو مما نحن فيه، أرحنا بما عندك يا هاشم و قل لا أخرس الله لك لسان

قال لما لا نحفر بجانب السواتر ان كانت الأرض لينة و نرفعها به دون جلب التراب بأيدينا من مسافات أبعد لأننا بهذا سنرفع من التراب ما نستطيع و تكون أرضية هذا الهيكل على شكل خندق فنختصر على أنفسنا عناء الارتفاع و لا تنسى أن باطن الأرض دافئ و بهذا ستكون فائدته أفضل من ان بقينا على سطح الأرض ببرودته، ثمنت له مشورته و رأيه التي كان لابد منها، هي طريقة ناجعة و سريعة في نفس الوقت، قال أيمن و هو ملقي برأسه على التراب متزملاً ما وضع من ثياب في حقيبته :ان كان أبا طارق سيأتي بعد سويعات فلم هذا العناء الذي لا طائل منه، نظرت إلى شبحه الذي لا أرى منه سوى طيف أقل ظلمةً من هذا الظلام الذي يغطي كل شيء و قلت له :عندما تدرك ما حل بك ستعي لما نحن نفعل هذا، فالحياة تأبى و الموت يأبى يا أيمن ،نهضنا تباعاً لنكمل ما بدئنا كنا نجمع التراب لنصنع هيكلنا المربع و نحفر ما قُدر لنا أن نحفر من داخل هذا الكل لنجعل قاعه مجوفة، استمر العمل لمدة ساعة استنفدنا فيها كل قدرة لدينا على الصمود أكثر في مواجهة هذا البرد، و بعد أن انتهينا، هممنا بالاستلقاء داخل هذه الحفرة كلٌ جنب صاحبه ، قمنا بتغطية اجسادنا بكل الثياب التي كانت موجودة في حقائبنا لتكون حاجزاً صغيراً للبرد الذي نخر عظامنا، كان رأس الساتر الترابي بالكاد يصل لمستوى الاذن، لكنه أمن لنا دفئا يبقينا أحياء و نمضي به ساعاتنا هذه بسلام بارد منتظرين ما تحمله لنا الساعات القادمة

كنت مستلقياً على الطرف الجنوبي للحفرة و كان هاشم بجانبي و أيمن على الطرف الآخر، كنا نحدق بأبصارنا نحو تلك النجوم التي تختفي أحيانا و تظهر أحيانا أخرى مجسدةً عذابات الإنسان التي لا تلبث حتى تُنسى لتظهر من جديد بشكل آخر، تحدث هاشم بصوت مرتجف خائف ضعيف

ماذا فعلت يا إلهي كي يحصل لي كل هذا... ما الذنب الذي إقترفته كي تخسف بي قدرك....

تعلم أني لم أخطأ أبداً و لم أكن عاقً بوالدي و لم يكن لكائن ما على هذه المتسعة مظلمة عندي، أنت تعلم الأيادي البيضاء التي كانت في ما مضى فلست بحاجة كي أعلمك، أنت تعلم كل شيء اذاً لا داعي لأن أكذب عليك بشيء.. أنا من فِعلُك يا إلهي و من قدرك و أنت المسبب في كل هذا... أنا ابن الخطيئة الأولى و الثانية التي قدت أبي لفعلها... انا ابن أمي التي باركت السماء لها فاحشتها الأولى... لما هذا كله يا إلهي، لما تمتحن عبداً لك أطاعك و أحبك و لم يعصي لك أمراً في كل دروب حياته... هل إكتفيت من عبادك الصالحين و لم يعد مكان لأحد آخر في الجنة و تريد من هذا كله أن يحيدوا عن دربك كي يخففوا عنك عناء إيجاد مكان لهم في الجنة، إن كان هذا فأنا و إن أخطأت و نهجت منهج الشيطان الأول فلا ذنب علي، فأنت من قادني لكل هذه الأمور... أغثني إن كنت تلقي بالاً لصحفي التي ستأتيك مملوءة من قبل ملائكتك الذين أدعوا أني كفرت...أرجو أن تطلع على حقيقة أمري بنفسك فأنا لم أعد أثق بهؤلاء الذي وضعتهم عن يميني و عن شمالي و لا بالذي يكتبونه دون تحقيق... تكفل بأمري و لا تدعني عرضة للأيام الشواذ تنهش إيماني... فأنا أُنهكت كثيراً بإمتحاناتك التي لا تنتهي، أنا لست نبياً و لا أملك عصمة الأنبياء و لا ما رآوه من معجزات كي يثبتوا على إيمانهم... ما أنا إلا جلف أعرابي نَبُت من هذه الصحراء و شاع بها و آمن بما يشاع و صدق كل شيء و لم يصدقه أحد

أعود إليك مرة أخرى بعد كل هذا طامعاً و راجياً رحمتك فلا أحد يرى ما أنا به إلا أنت

أنهي هاشم حديثه مع الله، كان مغمضاً عيناه و الدمع قد ترقرق بداخلهما تاركةً تلك الدموع أثراً أبيضاً لامعا على خديه ، كان ضوء النجوم الذي يغطي فناء وجهه يظهر لمعاناً جميلاً و محزنا على خديه، أدرت وجهي نحو السماء دون أن أُشعره بأني كُنت أنظر إليه،

لعلها كانت لحظات لا يريد لأحد ما أن يرى حاله به و في ذات الآن لا أريد لشعوره بمراقبتي له ببصري أن يقطع سكينة حديثه مع الله، نظرت أنا الآخر إلى السماء محدقاً بأجرامها الجميلة و البعيدة، نعم يا هاشم الله يسمع حديثك المُعلن و أحاديثنا الباطنية التي قُلناها الآن و قبل أن نلتقي هنا، لقد سمع و رآى خواطرنا التي جالت في أذهاننا منذ أن أدركنا هذه الحياة و منذ أن ادركتنا لم نعد نملك شيئاً ها نحن مفلسون مرة أخرى، و حالنا لا يُعبئ به، أصبحنا عبئاً ثقيلاً على كل الذين عرفونا، نحن الآن في مرحلة النسيان الأخير و ما هذا الذي نفعله إلا مناورة أخيرة للبقاء في أذهان من نحب، هل تعلم أني تمنيت من الله أن يأخذني إليه إن أنا بلغت الثلاثين من عمري، نعم لأنني في هذا سيدوم ذكري و حُزن أهلي علي للأبد و قد أكون بهذا مثلاً للعائلة و للمقربين لأحفادهم و أحفاد أحفادهم إن أرادوا نصحهم بأن لا يسلكوا طريقا خطرا سيقولون لهم لا تفعلوا كما فعل مجيد الذي فقد عمره و هو شاب في سبيل رحلة بحث لم يعرف فيها عن ماذا يبحث، لا تضيعوا أنفسكم و لا تُفتنَوا فتكونوا كذاك الذي أردى نفسه في قعر رمال الصحراء الباردة باحثاً عن نجوم السماء الجميلة التي فتن بها في إحدى ليالي ديسمبر الباردة، نعم يا هاشم نحنا ما كُنا إلا أخطاء أُرتكبت في ليالي مظلمة شديدة البرودة كهذه الليلة التي قد نجد فيها ملاذاً أخيراً لأرواحنا المرهقة، استمتع بوقتك الجميل هذا يا صديقي فأنك لن تعيش هذه اللحظات مرة أخرى، لن تعيشها إلا في ذاكرتك المريضة التي ستلازمك حتى القيامة.

هدأت رياح الشمال الباردة و التي لم يبقى منها إلا نسمات تنساب بين الفينة و الأخرى على وجوهنا، كنت أراقب إحدى النجوم التي تمضي بسرعة كبيرة في ذاك الفضاء الواسع متجاوزةً كل ما يعيق تقدمها، الشيء الوحيد الذي بدا واضحاً و بقوة في هذه السماء هو نجمة الشيطان التي تخفت و تلمع بين الحين و الحين، يبدو أن السماء تنذرني بما هو قادم،

ثم قلت لهاشم سأحدثك بالذي تذكرته الآن في هذه اللحظات، تذكرت رواية قد حدثني بها أحد اصدقائي في الجامعة أثناء جلسات السمر في مساكن الجامعة الطلابية لقد كان اسمه "عمر ميداني" من مدينة دمشق، لقد قال لي في ذلك الوقت قصة غريبة كان يقول بأن صهره حدثه عن قصة حدثت معهم عندما كان يخدم كضابط مع القوات الحكومية منذ عامين في صحراء تدمر و بعد دخول عناصر المعارضة اليها و اكتساح الاخير لهذه المحافظة، فر هذا الضابط مع مجموعة ناجية من مناطق القتال نحو عمق الصحراء ليصلو إلى مكان ادركوا فيه أن سبل النجاة قد تقطعت بهم و كان لا مناص من مواجهة الموت، كان يسير ليلاً مع حفنة من المجندين الذين تبقوا من الكتيبة العسكرية لم يكن السير عادياً كان سيرهم عبارة عن تخبط متهالك في رمال الصحراء التي لم تعرف الحياة و لم تعطها لأحد من زوارها، كانت تلك الصحراء سعيدة بمرورهم على ظهرها الموشح بالرعب و الخوف، سعادتها تكمن في تلك المعارك الضارية التي دارت رحاها فيها و كأنها بهذا تعيد ذكريات ملكة الرمال زنوبيا و أطلالها التي تنهض في منتصف كل ليل لتداعب رمالها الرطبة بدماء الروم و التي لم تجف حتى لحظة سير هؤلاء العناصر عليها... و في وعورة مسيرهم نحو حتفهم الموعود التقوا بعدة عناصر كانوا قد نجو من واقعة أخرى.... سأل صهر عمر العناصر الذين كان قد لقيهم هو و بقايا كتيبته :

هل بينكم ضابط، أجاب اولهم "لا" فالجميع قضى نحبه أما نجاتنا نحن فكانت بالصدفة بعد أن تظاهرنا بالموت، رد عليهم الضابط و قال هل يعلم أحدكم كيف نخرج من هذه المكان، رد عليه أحد العناصر الذين لقيهم و قال :أنا أستطيع سنصل إلى مواقع أصدقائنا عن طريق هذا السرب العظيم من النجوم،

لم يكن لأحد منهم خيار فالضابط في قرارة نفسه ظن أن هذا العنصر قد جن أو قد صابه مس من جان هذه الصحراء

لكنه لم يكن يملك قرار في هذا الموقف الصعب فتبع العناصر ب ضابطهم هذا المجند حتى وصلوا من خلال قراءته للنجوم للمكان ضمن سيطرة الحكومة... هل نستطيع يا هاشم أن نفعل شيئاً مثل هذا، "لا أعتقد ذلك" أجابني هاشم و هو يحني رأسه نحو التراب.

عم السكون المكان حيث لا شيء يُرى هنا سوى وجوه الفتية المغبرة و نسمات تهب ببطئ و حنين و قليل من البرد، لم أكن أعلم كم قد مضى من الوقت ولم أستطع أن أسأل من هم معي لان أجسادهم المنهكة قد نال منها التعب و أخذت قسطا من النوم لعله يعيد بعض طاقتهم، سمعت صوتا كان يقترب و يبتعد و كأنه يبحث عن شيء ما، اتقبض قلبي و لم أكن أعلم ماذا افعل و انا في هذه الحفرة و وسط هذا الظلام و بجانبي شابان لم تكتمل رجولتهما بعد و قد يفزعهما اهتزاز اوراق الشجر أو تساقطها، همست في أذن هاشم بأن هناك حركة مريبة في الجوار، لا تصدر اي ردة فعل و لا تتحرك فحركتك هذه مع هذا الهدوء الذي يعم المكان قد تلتقط من قبل هذا الذي يتحرك حولنا، أخبر أيمن بما أخبرتك و أوصه في البداية أن يبقي مكانه دافئاً، و يبقي بصره على حاله فإن تغيرت عيناه إلى موضع أخر قد تقف الاقدار ضدنا و تصبح عينه مصباحا متوهجا ملفت فبهذا قد تقع عينه في عين هذا الذي يبحث عنا و يكون قد كُشف أمرنا و أصبحنا في عداد الذكريات بالنسبة لجميع من أحبونا ،لم تمضي سوى دقائق حتى تفاجئنا بوقوفه فوقنا حاجبا عن كل ذلك الضوء الذي كنا نشعر به من خلال ما استجمعناه في خيالاتنا من النجوم ، صمت قليلاً ثم قال :ما الذي جاء بكم إلى هذا المكان، لم يستطع أحد منا التفوه بأي كلمة فنحن لا نعلم من هذا الرجل و إلى من ينتمي، ادار ظهره ثم قال اتبعوني ،شعرنا بالقليل من الأمل و الكثير من الخوف لأننا قد كُشفنا دون أن نفعل أي شيء أو نتحرك أي حركة، هم هاشم بالوقوف و قال لنتبعه فنحن لم نعد نملك خيارا في هذه الحياة، سلبت ارادتنا و انسانيتنا منذ زمن بعيد،

صدقوني لن يضير الشاة سلخها بعد ذبحها فنحن قد ذُبحنا، هيا بنا فإن موعدنا مع الآخرة قد أصبح قريبا، تبعه هاشم ثم أنساق خلفه أيمن و أنا لازلت أفكر في قصة ذلك المجند و قراءته للنجوم، كنت بين خيار الهروب و المشي لمسافة ٦٠٠ كيلو متر حتى أصل بلادي أو أمضي مع من كان معي.

تبعت أصحابي الذين هموا باللحاق هذ الرجل الذي سقط علينا من الجحيم، و عندما وصلنا لطرف البستان قال أنا سأخذكم إلى النقطة التالية لكن مشياً على الأقدام، عليكم أن تتحملوا عناء الطريق قليلاً و لا نملك جميعنا سوى هذا الخيار، أجابه أيمن بصوت مرتفع نحن معك و مستعدون للزحف عشرات الكيلو مترات لكن ما يهم أخي هو الخلاص من هذا المكان الذي كتم على صدورنا بأشباحه التي كانت تطاردنا منذ أن وطئنا قفره، التفت إلى أيمن و شده بيده من قميصه و قال له بلهجة حادة و صوت منخفض، إن رفعت صوتك ثانية سأدفنك هنا حياً، أصابني بالذعر و الخوف هذا الموقف و أدركت أن وعورة الطريق و ظلمة الليل و شبح الخوف من الدوريات المنتشرة في المنطقة هو أقل الكوارث التي قد تواجهنا في هذه الزاوية المعزولة عن العالم، و أدركت كذلك عندما تراجع أيمن للخلف بطريقة هستيرية و ضوء القمر بظهر رعباً في عينيه أدركت أنه قد بلل بنطاله بسبب ما جرى قبل قليل، بدأنا بالمشي بإتجاه الشمال، كانت الأرض قد حرثت منذ فترة قليلة مما زاد سيزيد من معاناتنا في المشي اذ أننا أمسينا و كأننا نغوص في بركة طينية ، كنا نسير ببطئ على شكل سرب صغير من قطعان الذئاب البائسة، لم أكن أرى اي نور قريب يلوح في هذا القفر البعيد والمنسي، كانت النجوم هي مؤنسنا الوحيد في هذا الهدوء الذي ينتشر على بعد حياة شخص كاملة، بقينا على هذا الحال لمدة ساعتان لم نتوقف فيها للحظة للراحة، تباطئ أيمن في المشي كي أدركه و عندما أصبح موازيا لي،

قال أنا لم أعد استطيع السير أكثر من ذلك و كأني بروحي قد ضاق بها جسدي، أرجوك تحدث معه و قل له بأننا نريد أن نرتاح قليلا، فأنت تعلم بذاك الذي حدث بيني و بينه و أخشى أنه قد تحامل علي و لن يحتملها مني إن طلبت منه أنا نتوقف لهذا فأنا أستجير بك أن تخبره ....سارعت حاملاً أقدامي بيدي من شدة التعب هاجما نحوه ، لقد مشيت بطريقة مخيفة و كأني ذاهب لقتاله، نعم هناك شيء ما دفعني لهذا، شيء من رد اعتبار أيمن الذين خرج منذ أيام من أحد أقبية جهنم في مدينة حلب، تلك الاقبية التي سلبته كل شيء و آخرها كانت كرامته و هذا ما رأيته في موقفنا الأخير، قد يكون دافعي أكبر و أن لا يظن هذا الذي جعلته هذه الأيام يقودنا في هذا المكان الموحش أن لا يظن أننا من أولئك الذين يريدون الهروب دافعين بكل ما يملكون ثمناً لهذا الهروب

عندما أصبحت المسافة بيني و بينه أقل من الثلاثون سنتمترا، شددت قميصه بيدي بشدة و أجبرته على الوقوف، و قلت له توقف فنحن لم نعد نستطيع المشي أكثر من هذا، علينا أن نرتاح قليلاً، أستدار نحوي و هو يحاول أن يرى وجه الذي أوقفه، لم يكد يستدير حتى كان هاشم و أيمن بحذائي ، فكر لبرهة في الرد و أدرك أن الثلاثة قد اجتمعوا عليه في هذا القفر المعزول، لم ينطق بحرف واحد إنما عمد الى الركون الى بقعة منخفضة بعيدة عنا قليلاً ثم قال ارتاحوا قليلا لدينا وقت كافي،

جثى أيمن على ركبتيه من فرط التعب و هو يتمتم طالباً شربة ماء، لم يكن يملك في تلك اللحظة سوى بقايا روح تائهة تسير في ظلام بائس و بعض الكلمات التي قالها لنا "أخرجوا علبة المياه التي في حقيبتي" سارع هاشم لفتح حقيبته و اخراج علبة مياهه الخاصة ليروي روح هذا المنهك، في هذا الموقف الذي يشبه مواقف كثيرة جعلتني أبكي لم أستطع التجلد و تمالك نفسي و منعها عن البكاء،

لكني بكيت، هناك الكثير من الدموع المؤجلة في عيناي التي غاصت بهما و لم تختر سوى هذا المكان لإزاحة هذا الثقل الذي لم يعد قابلاً للتأجيل مرة أخرى.

جميع الذين خذلوني في البداية إدعوا وقوفهم بجانبي في منتصف الطريق لكن في النهاية عادوا كما كانوا كشهر أكتوبر الأصفر ،عادوا لخذلاني مرة أخرى و توجيه الطعنة القاتلة في الذاكرة، أنا أُقر بأني كنت جاهلاً لدرجة الغباء عن المكائد التي كانت تنصب لي و مع هذا حزين أنا على تلك الليالي ذات الظلمة الآمنة التي مرت علي، كانت جميلة بجهلي لما فيها و لو علمت لما كانت جميلة، أعزي نفسي بأني عشت لحظات جميلة كانت نهايتها غير الذي كنت أحلم ،لكن علي إكمال الحُلم الذي رسم لي على حافة الهاوية.....

أخذتني الذاكرة بطول الأحداث المهولة الحاضرة فيها إلى أشياء لا تمت بالذي أنا فيه الآن بشيء، إن عزائي الوحيدة فيما أمر به الآن هو أنني بدأت أدرك ما هية هذه الحياة التي أعيشها، جسد خاوي ملقى على التراب بلا حاضر و لا مستقبل، لم أستطع منذ أيام سد جوع ذاكرتي الخاوية بإستذكار وجوه الغائبين، رمادية المكان تركت أثراً غير واضح في عقلي.

كلماتي المبعثرة قد لا تعني الكثير للكثيرين الذي يمرون من هنا بصمت دون أي التفاتة فارغة من الكآبة، كثيرة هي الأشياء التي تختلج الصدر و لا أستطيع البوح عنها سوى بالإيماء بعيني لتلك السماء البعيدة بنجومها المنساحة فيها بعزلة مريبة، لم أحاول قط التبرير لمدعي العقول السليمة فيما كنت أريد و لم أبرر لمن هم دون ذلك، لا أحتاج لكنوز الكذب هذه أبداً، قد لا يكون الاختلاف فكرياً انما قد يكون أبعد من ذلك بكثير،

من الجميل جداً أن يُساء تقدير الأمور بالنسبة لمن هم حولك لأنهم بذلك لن يكلفوك عناء البحث عنهم في مخيلتك و تصرفاتهم المصطنعة التي ستقيد تقييمك حولهم.

إستطاع الكثير من العابرون من هذا المكان من الكون ملئ قربهم بالماء و استطاعوا أن يسقوا جميع من صادفوهم، لكن عندما لاح ذاك النجم المتوهج قادماً إليهم منعوني من الماء، و آبت ظلمتهم المتجذرة في خيالاتهم الحالمة من الانصات إلي، كانت تلك الرحلات التي يأتون بها من رمال الصحراء ضخمة و مهولة.

و لطالما اعتقدت أنني مع تقدمي السريع بالعمر و تجاوزي المائة عام من الخيبة لن أستطيع بعد ذلك إنكار الأحزان التي تملئ داخلي و سأدرك في لحظة مشوهة ذات وجع قاتم بأنني لم أعش أبداً و كل اللحظات السعيدة التي مررت بها ما كانت إلا سراباً ظننته ماءً في لحظاتي المبكرة من حياتي الظمئة، أخذتني خيالاتي و أنا أسند ركبتي على تراب هذه الأرض بأني قد أنتهى هنا و يتوقف كل شيء، بهذا أكون قد دفنت آخر أحزاني المرهقة هنا، نعم أكاد أجزم بأنها لحظاتي الأخيرة هنا، فأنا لن أستطيع التقدم أكثر فهناك شيء ما يشدني للوراء و أنا لا أريد الالتفاتة مرة أخرى للوراء الذي سيبقيني في حالة هزيمة دائمة تشبه في أوجاعها معاناة رجل ستيني قد ألقى بسمعه على حائط منزله المليء بأصوات الراحلين، هذا كله يوجب علي الاعتراف أمام هذه الليل بسمائه الصافية و أرضه الخاوية الاعتراف بهزيمتي المذلة في كل معاركي التي خضتها في سنيني القصار هذه، و لعل معركتي الأخيرة هذه ستكون لها كلمة الفصل لوضع حد لكل ما يحدث، هناك الكثير من الرجال الذين لقوا حتفهم بسبب ذاك الضجيج المخيف الذي لا ينتهي في عقولهم و قلوبهم، تلك الريبة كسرتهم آلاف المرات و في النهاية قتلتهم و ها هي ذا تدركني هنا، لعل ما يجمعني مع اولئك هو ذاك الضجيج و هذا الحزن التي تراكم حتى أصبح عبئه ثقيلاً على قلبي،

و هنا أدركت مغزى كلمات فان غوخ عندما قال "أريد أن أسافر في النجوم و هذا البائس جسدي يمنعني" لكنه لم يمنعك في الأخير فأنت الذي كنت تتجرع مرارة ما تعيش و ما تقاسي و لم يكن ل ثيو أي معرفة بالذي ألم بك مهما بذل في سبيل ذلك لإيجاد شيء ما يغريك في هذه الحياة، ها نحن ذا متساويان فأنا كما كنت انطوائي سودواي مبعثر مرتاب و مربك في أموري كلها منقلب على ذاتي البائسة مشتت بجسدي و بروحي أسير على مركب خشبي محطم فوق هذه الصحراء ، سأستعير منك كلماتك أما الأدوات فهي لك فطابِعي يختلف عنك كما تختلف أنت عن الكثيرين، أدواتي هي عجافي التي أنهكتني و أفنت حيلتي لتقودني إلى المكان الذي قدت نفسك إليه.....

أصوات الحصى التي ألقاها ذاك الرجل المجهول الذي يقودنا لأمر لا نعلم نهايته قاطعت خيالاتي المغلوب على أمرها، يبدو أن الوقت الراحة قد نفد و علينا مواصلة السير مرة أخرى، اقتربت من هاشم و أيمن اللذان كانا مستلقيان على ظهورهم دون أن يلقوا بالاً لندهات ذاك الرجل، قلت لهما علينا أن نتجلد قليلاً فالتعب قد بلغ منا جميعاً مبلغاً لا نستطيع تحمله، أجابني هاشم بتململ متذمراً من كل هذا و قال : هل حقاً يجب أن نكمل

كان لابد أن نكمل و ننهي هذه المساجلة التي لن تغير شيئاً في ما يجري، أكملنا مسيرنا و نحن نحذو خلف ذلك الرجل حذو اليأس باليأس،

كان هاشم يتمتم بكلام فيه عتاب لله، قاطعته بهدوء : ما بك.

أجابني بصوت خافت و منتحب :ذات مرة قال لي والدي نحن لا نعاتب إلا الذين نحبهم و ها أنا أعمل بحديث والدي، أنا أُحب الله و أريد أن أعاتبه هل في كلامي شيء من الشك في مقادير الله، ثم بدأ يردد عبارة بقيت على لسانه لعدة لحظات " مساكين أولئك الذين نصحوني ذات مرة بزيارة طبيب نفسي"

لم أجبه بشيء فللنفس البشرية قدرها و قدرتها على التحمل لمدى معين و يبدو أن روح هاشم قد ضاقت ذرعاً بالذي بداخلها.

لقد تجاوزنا الساعتين من الزحف هذا ما خمنته في عقلي، لم يتغير شيء في ذلك الليل كل شيء كان ساكناً هادئاً مخيفاً، الشيء الوحيد الذي بقي متحركاً تلك الندهات الحزينة التي تضرب الذاكرة رويداً رويداً ضاربةً بذلك ما يعانيه هذا الجسد من مشقة المسير، لا أعلم لما شعرت أنني مررت من هنا سابقاً، و شعرت كذلك أني قد شعرت بهذا الشعور الذي يمزقني الآن، يبدو أن تصورات اللاوعي أو تلميحات العقل الباطن لدي باتت تتلاعب بي هي الأخرى، بدأت أدندن بصوف خافت على وقع المعزوفة الخالدة لحسين علي زاده، هذا المعزوفة التي خلدت جميع مراحل الخيبة من هذا العمر في شطرها الأول، قاطعتني كلمات هاشم "يبدو أنك لست على ما يرام يا رفيقي، أجبته ممازحاً :حال السائل ليست أفضل من حالي،

سألته :كم بقي من الوقت بإعتقادك لنصل إلى تلك النقطة الملعونة يا هاشم.

قال لي : لم أعد أشعر بأهمية الوقت لكنني متأكد من أن النقاط الملعونة ليست إلا خيالاً يغري التائهين للمضي نحوها و هو يعلم بأنه لن يصل و إن وصل فإن لعنتها ستحل عليه، نحن نسير في أرض لا تنتهي و يقودنا رجل مجنون فما تقول في سفينة قبطانها هكذا، هل ستصل و تنجو؟

جميع الذين كابدوا أهوال الحياة و ظنوا أنهم نجوا من الموت كانوا متوهمين، إن وصلت أجسادهم لشاطئ السلامة فأرواحهم لم تسلم و إن ادعوا غير ذلك، ذلك الأثر الذي تركته الحياة في نفوسهم لا يمكن إخفائه عندما يجلسون لوحدهم في مكان ما يثير ما هجع في النفس، هل تريد أن تقول أن هذا كله سيبقي أثراً مريراً لن نستطيع التخلص منه

بدا لنا من على مسافة ليست بالقريبة ضوء مصباح خافت يزداد نوره و يخبو بين الحين و الحين، كنا نتجه نحوه نحن الأربعة و أدركت في حينها بأنها تلك النقطة التي نريد، واصلنا المسير مجردين من كل شيء في هذا البَر المجرد و الكئيب، و بعد مضي نصف ساعة تقريبا وصلنا لذلك الضوء، كان مصباحا يعمل على البطارية مثبت على عمود لا يتجاوز المترين و بجانبه ثلاث رجال بدؤوا بمصافحة الرجل الذي كان يسير بنا ثم القوا علينا السلام و تحدثوا فيما بينهم ليغادر بعدها الرجل الذي أتى معنا، تحدث أحدهم و قال :اتبعوني بسرعة و لا تصدروا صوتاً، فعلنا ما طلب حتى أُدخلنا إلى غرفة واسعة مبنية من الطين، خلعنا أحذيتنا و جلسنا دون أن يُطلب منا ذلك، لقد بلغ الإرهاق منا مبلغاً كبيراً. جلبوا لنا الماء لنغتسل حيث كانت وجوهنا أشبه بالوجوه التي تخرج من ركام الأبنية المهدمة، كان التراب يملئ جسدي بأكمله لكن لن أمانع إن إزلت بعضه عن وجهي، لم أرى أية أبنية في الجوار سوى هذه الغرفة و منزل كبير بجوارها، قام أحد الرجال الذين رأيناهم عند وصولنا بمناداة فتى اسمه منير بأن يجلب لنا طعاما، ثم التفت الينا و قال من المؤكد أنكم جائعون، كان هاشم يجلس بجانبي، إستدار نحوي و قال : لا أعلم إن كنا في بداية الطريق أو في منتصفه او نهايته لكنه أمر جيد أن نبدأه بالطعام، أحضر لنا الفتى منير و كما يقال في اللهجة السورية (صينية طعام) وضعها أمامنا ثم تراجع، لم نكن نعلم ما هو الطعام هل هو لحم دجاج أم تماسيح ف الضوء لم يكن قويا كفاية ليصل لنهاية الغرفة فأنا بالكاد كنت أميز حدود الصحون و عددها، قال الرجل صاحب المنزل، ستنتقلون من هنا بعد ساعة تقريباً للنقطة الفاصلة بين الطرفين سأله هاشم هل نحنا هنا بأمان.

أجابه الرجل :الأمان بالله، نعم لن يصيبكم أي مكروه من الشيء الذي تفكرون به، إنهينا طعامنا و تراجعنا كُلٌ إلى مكانه إلا أن أيمن جلس بجانبي ثم قال لي بصوت منخفض،

قد أتقيء في أي لحظة أعتقد أن أكلت شيء ما شعرت بحركته في فمي،

أجبته و أنا أضع يدي على بطني : بعد كلامك هذا لن تكون الوحيد.

غادر الجميع الغرفة و بقينا نحن الثلاث لوحدنا، كان هاشم غارق في أفكاره و أيمن قد هم ليريح عيناه المتعبتين من التحديق في النجوم، لم يكن هناك وقت للحديث، كان كلٌ منا ينام على جبال الإنهاك التي بداخله، إبتعد هاشم بمخيلته كثيراً ليصدر صوتاً شائخاً مبحوحاً و مرهقاً "لقد كنت أقيم في لبنان و لم أوفق بطريقة شرعية لمغادرتها، كان هناك قوى خفية غير واضحة تحاربني في كل شيء" في أحد الأيام اقترح علي أحد الاصدقاء هناك أن نغادر لبنان متجهين لتركيا لنغادر من بعدها إلى أرض الأحلام 'أوربا ' قال حينها ذاك الصديق الذي يدعى "فادي شمس الدين' الجميع يحزم امتعته و ذكرياته و يريد أن يغادر بها و نحن هنا لا نحرك ساكناً، إلى متى يجب نبقى هنا و بهذه الحالة، إن أردت الذهاب معي فتجهز للرحيل فأنا ذاهب غداً لإستخراج جواز السفر من السفارة و من ثم سأغادر.

توقفت للحظات يا يوسف قبل أن أجيب فادي بطريقة جبانة يملئها الخوف و الخذلان " سأغادر معك" مضت الأيام و لم أغادر و غادر يوسف و هو يشعر بالأسى تجاهي و أنا أشعر بالحزن لأني سأفقده فيما بعد إلى الأبد، لتمضي الأيام دون أن تأتي لي بخبر صغير مفرح عن فادي الذي ذهب و هو يحمل آماله العِظام معه قاطعاً به عرض البحر و ماراً بجانب أفواه أسماك القرش الجائعة، كنت دائما أغبطه على شجاعته بقدرته على إتخاذ قرارات صارمة بأوقات حالكة الظلام و شديدة القسوة، لم يكن شخصاً عادياً كان ثائراً على كل ما هو محطم للنفس و مذل لها و معذبها و مستعبدها هذا الشيء الذي جعله لا يوفق في كل عمل يذهب إليه، لكن أتمنى أن يُوفق في قراره الأخير، لم تنتهي القصة هنا،

فهذا الرجل بما يحمله من شجاعة و صلابة لا يمكن للحياة أن تدعه يمر مرور الكرام و هي التي تعودت على الأذلاء أشباهي و اعتادت عليهم و اعتادوا عليها

الرجال الذين لم يعتادوا على حياة كهذه، لا أذكر أن احد منهم قد طال به العمر أكثر من العقد الثالث.

مضت أيام طويلة دون أن ألمح طيفاً قصيراً يأتيني بنبأ عن فادي، و ذات مرة و أنا جالس و أتصفح في صفحتي في احدى وسائل التواصل الاجتماعي المشهورة، كنت أمرر بين الصفحات بيدي بسرعة جنونية، لا أعلم عن ماذا أبحث، لتقع عيني و تتجمد جوارحي عند صفحة سليمان أخاه لصديقي فادي، كان قد كتب في منشور حديث بأنه يبحث عن أخيه المفقود فادي الذي غادر ميناء مدينة ازمير التركية في قارب صغير ل تنقطع أخباره عن الجميع منذ ذلك الحين، ذهبت لصفحة سليمان و أرسلت له اطمأن به على حال فادي مدعياً بشيء من البلاهة أني لا لم أرى ما كتب، أجاب برسالة مقتضبة بأنهم قد فقدوا التواصل معه منذ ساعة مغادرته و لا يعلمون عنه شيئاً حتى هذه اللحظة، نعم لقد ذهب فادي، ذهب و لن يعود، ذهبت إلى صفحة فادي و قلبي مليئ ب الأسى أبحث عن رائحة لتلك الذكريات التي أتعبت كل من بحث عنها في ثنايا الذاكرة الراحلة؛ أخذت أقلب في صفحته باحثاً عن شيء من تلك الكتابات التي كان يخطها بيده، قبل أن يقرر التخلص من تلك اليد و من تلك الكتابات، لم تكن معروفاً للناس كثيراً يا فادي لكن الحياة كانت تعرفك جيداً، تلك الحياة التي وضعت إذلالك ضمن سلم أولوياتها و ما تركت حدثاً أسوداً إلا و قد أجبرتك على الدخول به و مصارعته ضناً منها في كل مرة بأن نهايتك فيها، لكنك لم تُهزم أبداً،

بل كانت هي التي تخرج مهزومة متوعدة بالثأر لهزائمها الخالية،

و لم تنجح في كل محاولتها اللاحقة، حتى استطاعت النيل منك في أخر محاولاتها السوداء

و ذلك بإغرائك بطريق السعادة الذي يقود نحو الجحيم و إختارت لجسدك الذي ترك ندوباً فيها أن لا يدفن كما يدفن البقية أرادت النيل من جسدك حتى بعد موتك و تقطيعه إرباً صانعةً منه طعاماً لوحوشها في ظلمات بحر إيجة.

توقفت قليلاً في أكناف صفحته لأجد في تلك اللحظة إحدى كتاباته التي كان يخاطب بها إحداهن متوسلاً الوصال و الحب

إذ قال فيما قال :

أني إخترتك منذ الأزلية الأولى لوجودي،

لتكوني الوحيدة....

الوحيدة التي ستمد يدها لهذا الجسد الذي تغمره رمال الخيبة،

لا أجد غير طيفك عوضاً لكل خيباتي

حيثما وليت قلبي لم أجد غيرك،

لم أُهزم أمام أمور كبيرة، لكني هُزمت أمام عينيكي،

ليتني لم ألتقي بك و ليتني لم أحب و ليتني لم أكُن

لقد توعدتني هذه الحياة بالكثير و لم تُفلح في كل مساعيها لإنهاكي إلا بك.... حيث استطاعت أن تدق الأسفين الوحيد في أحلامي و قد كان هذا كافياً ليجبرني على رفع الراية البيضاء المخضبة بخيباتي الباردة.

لم أتمالك نفسي يا يوسف أمام ما قرأت في تلك اللحظة وأدركت أني لم أكن شجاعاً، لقد كنت جباناً في أغلب ما عشت و أدركت أني لن أكون شجاعا ابداً،

ها أنا ذا أمامك جسد خاوي لا يحمل أي معنى من معاني الحياة، لم أعد قادراً على إكمال الطريق، أريد التوقف هنا، أريد الفناء هنا.

لقد نمنا في تلك الليلة المنهكة بنا و المنهكين بها و كأننا جنود جرحى نجونا من إحدى المعارك الطاحنة كما التي تحدث في بلادي و التي لا ينجو منها عادتاً أحد،

نهضت على صوت هاشم يقول لي بأن أحد الرجال قد قدم إلى هنا و طلب منا التجهز للمغادرة، و قال لي كذلك :لقد ملئوا هواتفنا بالكهرباء إن أردت أن تطمئن على أمك و تحدث عمك،

تناولت هاتفي و قمت بتشغيله، لقد كان هناك عشرات الرسائل من أمي و مثلها من أخي و كذلك عمي،

بدأت برسائل أمي، و عندما فتحت صندوق رسائلها وجدت

"أين أنت يا بني و أين حطت بك الأيام منذ أيام لم تكلمني، آلا يكفي غيابك عني، أتمنع قلبي و عيناي من رؤية حروفك، لقد حدثت أخيك و عمك و قالوا بأن رسائلهم لم تصلك، لا أعلم كيف اتأكد من كلامهم، و لا أعلم إلى متى سيحتمل هذا القلب"

توقفت للحظة، لحظة من الأسى و الحزن و الضعف أمام ما فعلته بنفسي و أمي لأجل خيال لا أعلم إن كنت سأصله أم لا.

أرسلت لها كلمات مليئة بالشوق والحب و التعب والحزن محاولاً إيصال الراحة لقلبها، لم تكن رسالتي تتضمن شيئاً مما كابدت في رحلتي هذه، أردت فقط إعلامها بأني بخير،

و رددت على أخي كذلك، لكن المفاجأة في رسالة عمي الذي قال لي فيها "يوسف لم نستطع المكوث كثيراً هنا، هناك أمور حدثت سأطلعك بها لاحقاً، لكننا الآن أصبحنا في الأراضي التركية و أنت ستتبعنا،

لقد رتبت كل الأمور و ماهي الا أيام و ستكون معنا و نمضي سوياً في طريق جديد نحو بلاد جديدة، لقد كانت رسالته كالصاعقة التي تقع على أرض رخوة محدثة بها حفرة عميقة ليس لها نهاية،

بدأت الأفكار تأخذني و تأتي بي، هل يتعين علي أن أعبر كل هذه المسافات لأصل إلى الشيء الذي أريده، هل الحياة تقف في وجهي، لم يكن قلبي مطمئناً لكل ما يحدث، لكني حاولت إقناع نفسي بأن الأمور بخير، أرسلت رسالة قصيرة إلى عمي أبا نجوى أحمد الله على عبورهم الحدود بسلامة و أنني سأكمل الطريق كما أراد و رتب لذلك و بقيت حسرة في قلبي أن أقول له بلغ سلامي الحار لنجوى

نهضت إلى خارج الغرفة التي كنا بها و عيناي تنظران إلى هاشم و أيمن و هما يقبضان بكل ما اوتوا من شوق على هواتفهم الجوالة محدثين، لم المح في عيونهم سوى الشوق و الحزنَ الخَوف، لا أعتقد أن هناك سبباً واحد يجعلنا نشعر بالأمان و الراحة، كل ما مررنا به كان مخيفاً، وجدت مغسلة صغيرة مهترئة تقف على نصف قدم تتساقط منها قطرات المياه بين الحين و الآخر، هكذا هو العمر نظنه يسير ببطئ حتى إذا شاخت قلوبنا قلنا لقد مضى العمر سريعاً من دون أن ندرك من الحياة شيئاً.

وضعت رأسي المليء بالتراب تحت الصنبور ثم قمت بفتحه، كان سيل المياه المتدفقة إلى رأسي قوياً و بارداً، كان اللون البني يملئ المغسلة، قد تكون السنون الصعبة التي نعيشها و نمر بها الآن ما هي إلا مقدمة لأعوام جميلة تحتاج لأمور صعبة لإظهارها، رفعت رأسي بعد أن اغلقت الصنبور ثم نظرت إلى الجهة الشرقية التي تقابل باب الغرفة التي كنا بها، كانت أرضاً ترابية جرداء ليس بها أي مقوم من مقومات الحياة،

كان الطقس بارداً نوعا ما، كانت النظر نحو الشرق ذو شجون فالمنطقة التي أعيش بها أنا و أمي تقع شرق هذه الأرض،

لم يستطع الماء البارد الذي يبلل رأسي و شيئاً من وجهي و عنقي مع برودة الطقس أن يطفئا النار التي تتلظى بداخلي، كان الأشواق تضرب بمعاولها في صميم قلبي نحو ذاك القلب الذي يقطن في الشرق البعيد،

أعيدها مراراً يا أمي ليتني لم أرحل، و ليتني لم أفكر، لا يمكن أن نُدرك مكانة الأم جيداً حتى نبتعد مجبرين عنها، أطياف الغائبين لا يمكن أن تتشكل في كل لحظة نريدها، هي ستكون فقط في حالات الضعف و الحزن و سماع الموسيقا الكئيبة؛ عدت أدراجي نحو الغرفة و ناديت كل من هاشم و أيمن ليأتيا و يغتسلا و يتركا نحيب قلبيهما لبعض الوقت، توقف هاشم للحظة و هو ينظر نحو المدى البعيد ثم ما لبث حتى قام و اغتسل ثم عاد ببصره محدقاً نحو هذه الأرض التي يراها بها شيئاً، ثم قال أيعقل أننا عبرنا كل هذه المسافة و لم نمت، ألم يكن حرياً بأجسادنا المنهكة أن تتخذ من هذه البلد المعزولة عن الحياة أن تتخذ منها مثوى أخير تداعب به أرواحنا عنان السماء و أسماء أحياء الذاكرة، ما الذي يجعل الشاة ترضى بالعيش إن كانت نهايتها الذبح.

جلسنا جميعنا في الخارج ننتظر الرجل الذي سينقلنا للنقطة التالية و التي نظنها ستكون الأخيرة قبل الوصول لمناطق سيطرة فصائل المعارضة في الشمال.

كان الجميع صامتاً و هادئاً في ظاهره، ليقاطع هذا الصمت صوت أيمن و هو يسأل هاشم :

ما الذي ستفعله بعد وصولك للشمال يا هاشم؟

شعرت للحظة بأن هاشم لم يُعِر سؤال أيمن اهتماماً، لكنه تنهد و قال له : لا أعلم، هناك أمور كثيرة أفكر بها، لكن المهم هو أن انتهي من كل هذا، ما نعيشه الآن يحجب عقلي عن التفكير بأي شيء، حتى أني أحياناً لا أعلم لما أنا هنا و لماذا أنا اريد الخروج

و أنا أحدق بالمدى البعيد و الذي لا تطال شيئاً منه عيناي سوى سراب مبعثر على بعد ألف ميل من الحزن، الحزن الذي ملئ قلبي و أصبح يطوف حوله مع مجموعة من الذكريات التي لطالما دخلت إلى خلد الذاكرة الآنية دون أن تطرق باب السعادة يوماً، قاطع كل ذلك خيال رجل بعيد يمشي نحو الغرفة التي ننتظر بها... أشرت إلى الرجل بيدي و أنا أقول لمن معي، يبدو أن هناك طيفاً يقترب منا، قد تبدأ لحظة الصفر في أي لحظة،

بنصف إلتفاتة، هكذا نظر إليه هاشم، ليعود إلى وضعيته الطبيعية، تاركاً المدى لظهره و محدقاً بالجدار واضعاً رأسه بين قدميه بعد أن لف يديه حولهما،

كانت المسافة تصغر مع مرور الوقت، و كان واضحاً أن هذا الرجل يطلب هذا المكان؛ و عندما اقترب اكثر، تميزت تفاصيله أكثر، كانت عليه علامات الرجل الجسور المخيف، كان يبدو بحجمه كالبعير، لم يبقى شيئاً في وجهه واضحاً، أثر الشمس التي مشى تحتها طيلة هذه السنين و في هذه الأرض أفقدت وجهه كل تفاصيله، عندما دنى منا أكثر و لم تكن المسافة أكثر من مترين، ألقى التحية علينا و قال لنا... هل أنتم الذاهبون الجدد... أجابه هاشم ... نعم و لم السؤال، لم يُعر الرجل اهتماما لسؤال هاشم و اكتفى بقول :تجهزوا فإن السيارة التي ستقلكم آتية بعد مدة قصيرة ثم غادر الرجل الى احدى الدور القريبة.

تنهد هاشم قليلاً ثم قال، هناك الكثير من البؤس في إنتظارنا و هناك الكثير من الإنتظار في الطريق... لا يوجد شيء يؤلم في النفس أشد من الإنتظار و خصوصاً إن لم نكن نعلم شيئاً عن ذلك الذي ننتظره، هلموا آيها الرفاق نُجهز أرواحنا ل معاناة أخرى، كان التعب قد ألم بالجميع،

تعبٌ لم تشهد الأرواح مثله أوصلها لحالة عظيمة من اليأس مع هذه الحياة لدرجة أنني رغبت كثيراِ في مغادرة هذه الآلام لراحة أبدية تحت أشواط التراب.

لم تمضي أكثر من نصف ساعة حتى أتت سيارة قديمة و مهترئة لها حوض من الخلف، توقفت أمام الغرفة و أشار لي السائق بالصعود معه و بإشارة أخرى يريد الجميع أن يأتوا، طلبت من هاشم و أيمن الخروج للذهاب مع هذا الرجل، صعدت من الأمام و تبعني هاشم ليجلس بجانبي، أما أيمن فقد صعد في الخلف فالمكان في المقدمة لا يكفي أربعة أشخاص، انطلق بنا الرجل بسيارته سائراِ على طريق ترابي، لقد كان الغبار الذي يتعالى نتيجة حركة السيارة كثيفاً و فاضحاً، لقد كان هاشم يراقب كل شيء اراقبه، ليبدأ حديثاً أُعتبر مزعجاً للسائق حيث قال له مازحاً: أعتقد أن الذين نخشى رؤيتهم يرون غبار سيارتك من دمشق. أجابه السائق بإبتسامة باردة :قد يرون الغبار لكنهم لن يستطيعوا الوصول إلينا.

لم نكن نرى أي شيء يشير إلى وجود حياة في هذا المكان، كان المدى بعيد و واضح و حزين، ما بال هذه الأرض لا تحتمل أقدام الغرباء الذين يطئونها، هل هي كذلك نبذتنا و نحن نحمل كل هذا البؤس و الخيبة، آليس حرياً بها ضم هذه الأجساد الغريبة و التي لم تذق طعم الراحة و الخلود إلى أرض تعتبرها ملاذها الأخير، ضجيج هذه الصحراء المخيف أمات كل الأحاديث التي ستولد هنا.... أشحت بوجهي نحو هاشم و قلت له أجبني بصراحة يا رفيقي، ما الذي أوصلك إلى ما أنت عليه الآن و أجبرك على الخروج من بيتك.... حدثني عن اللحظات الحزينة الأولى و لا تُعر بالاً لأحد و أنت تتحدث سوى لروحك.

لم تصمد عيناه كثيراً أمام سؤالي الذي لامس شيئاً من ذلك الوجع الذي يقطع أوصال قلبه،

لقد غاصت محاجر عيناه بالدمع لكنها كنت عصية على الظهور، قد لا تُريد هي الاخرى إيذائه كما أذته هذه الحياة، باغت عيناه بمسحها و إرجاع ما فيها للخلف حيث الذاكرة المليئة بكل ما هو حزين

"رحلت عن من أحب.... كي لا أرى سقوطهم الأخير، كانت أمي مريضة بمرض الكبر بالعمر و كانت تمشي و هي تحني ظهرها أثناء عملها في بستان المنزل... كنت أراقبها و هي تضعف أمامي شيئاً فشيئا، كانت سنينها الجميلة تتهاوي أمامي دون أن استطيع فعل أي شيء.... قلبي الصغير لا يحتمل رؤيتها هكذا فكيف لي أن أبقى لأراها ترحل تاركةً خلفها طفلاً صغيراً لا يستطيع فعل شيء... كن غريباً عني يا يوسف فأحاديث الغرباء جميلة و قصيرة و تموت بسرعة... قد أكون أخطأت في قراري هذا، لكني اعتبرته وسيلة لأحافظ على عقلي من الجنون و بأمل العودة و رؤية أمي مرة أخرى في بستان منزلنا بظهر قائم و صحة جيدة.... لقد غادرت كي تبقى أمي حية و لو بقيت لدفنتها بيدي.

لقد أشجاني هاشم بحديثه و حرك مواجعي، لكني لم أبح له بشيء و بأني قد أعاني مما يعاني ولو أن الأحداث في ظاهرها كانت عكس ذلك، كانت الشمس على وشك الوقوع في عين المجهول و نحن لم نصل بعد إلى وجهتنا....

لقد بدأت الجغرافية تختلف شيئاً فشيئا، الصخور تنتشر في كل مكان ممتزجةً مع الأشواك التي تملئ جنبات هذا الطريق الحجري، لم نكن نسير بطريق مستقيم، كنا نحتاج ساعة كاملة لقطع مسافة تبلغ خمسة كيلومترات، كان يلوح من بعيد سواد عظيم لم أكن أعلم ما هَو حتى أدركت بعد اقترابنا من هذا السواد بأنه أشجار أو غابة عظيمة قد تكون هذه بدايتها،

كانت السماء صافية و خالية من أي سحابة يمكن لها أن تعكر صفو الرحلة، بعد مسير طويل استطعنا دخول الغابة عبر طريق ضيق مفروشاً بالأحجار الصغيرة، كانت أشجار الصنوبر تشكل الغالبية العظمى من أشجار هذه الغابة، على الأقل في بداية هذه الغابة كانت تشكل تلك النسبة.

إستمر الرجل في الغوص بسيارته داخل هذه الغابة.. حتى أنتهى بنا مساحة خالية و شاسعة في قلب هذه الغابة تملئها الحجارة الصغيرة و حشائش عالية و كثيفة، يبدو أن السيارة لا تستطيع السير هنا لذلك توقف، ضرب الرجل بيده على فخذ هاشم و قال هيا بنا علي أن أوصلكم للرجل الذي سيأخذكم إلى ريف مدينة الباب، نزلنا بسرعة جميعنا و كذلك أيمن كان قد سبقنا في النزول دون أن يخبره أحد أقفل الرجل سيارته، و بدأ يمشي أمامنا، لم أكن أستطيع التمييز إن كان يمشي أم يركض لكن ما كان ظاهراً أنه يريد التخلص منا و إيصالنا للنقطة التي أظنها فعلاً ستكون الأخيرة، تجاوزنا المساحة المكشوفة لندخل في قلب الغابة مرة أخرى، كان الرجل يمشي بسرعة على نفس الوتيرة دون أن يلتفت خلفه... إستمرينا في المشي لمدة لا تتجاوز الساعة ليتوقف بعدها و يجلس في مكان أشبه بالحفرة و أشار الينا كي نقدم و نجلس بجانبه، كان أيمن يضع غصن صغير لين أخضر اللون في فمه و كأنه يلعب به، أما هاشم فكان يكثر التلفت يمنة و يسرة، أما الرجل فكان منشغل بإطفاء سيجارته التي لم يمضي دقيقة على إشعالها، يبدو انه يهم لفعل شيء، لكن هاشم باغته بسؤال أعاده لوضع السكون الذي كان أخذه اثناء تدخينه و قال له : كم الوقت اللازم لنصل لريف مدينة الباب و هل سنمضي في هذا الليل، أجاب الرجل و هو يعلي و يخفض رأسه، نعم ستصلون الليلة، اما الطريق فلن يتجاوز الساعتين او الثلاث مشياً و ستصلون لمنطقة لن تخافوا بها ابداً... ثم أردف قائلا :ستكون أمنة إن كنتم قد طُلبتم للخدمة العسكرية فهناك لن تجبرون على خدمة أحد،

لكن و مع ذلك أنصحكم بمغادرة البلاد و عدم البقاء لحظة واحدة في هذه البلاد إن اتيحت لكم الفرصة، أجابه هاشم و هو يبستم :من قال لك يا أخي أننا سنبقى هنا أو هناك و ما هذا كله طريق للخروج من هذا الجحيم الذي أحرق كل شيء جميل في حياتنا.

بدأ الظلام ينتشر في زوايا هذا المكان القاتم، كنا ننتظر رجل ما سيأتي ليأخذنا إلى تلك البلاد التي ستجمع كل شخص منا بما يريد، كنت قد أرسلت بعض الرسائل إلى أمي لكن عدم وجود أبراج الإتصال حال دون ذلك، قرر هاشم تغيير مكانه لمكان آخر يستطيع من خلاله أن يستلقي على الأرض و مطلعاً من خلاله على السماء، فأوائل النجوم قد بدأت بالظهور، تبعته لأجد راحتي هناك حيث الفضاء المليئ بالنجوم، هل أصبنا ب متلازمة عد النجوم، لماذا نجد راحة بالنظر نحو النجوم، لماذا لم نعد نجدها في النور و الشمس حيث الجميع يجدها، نحن أبناء الليل يا يوسف، الظلام هو الأمر الوحيد الذي يمكن من خلاله أن نبكي دون خوف من أن يرانا أحد، هو الملاذ الوحيد لضعفنا و هزالنا الروحي، أنا عندما أحدق بالنجوم لا أتخذ هذا الأمر ملهى و مسلي لأضيع به وقتي، إنما إدمانا حقيقاً لأسكن به مواجع القلب المثقل بنبرات الفراق و الشوق، أرقب النجوم لأنها نفس النجوم التي شهدت أحزاني الأولى، فهي الشاهد الوحيد على كل ما مررت به، لذلك لا تتعب نفسك كثيراً في الأسئلة التي لا طائل منها و استمتع بلحظات الحياة الوحيدة تحت النجوم.

لم أقنع بمال قال هاشم، لكني لازلت أحدق في النجوم،

فأنا لم أقف بعد، و لم أرى الأفق

لا زال ثعبان أحزاني يلاحقني،

مهما حاولت الهروب منه سأجده أمامي،

لقد كنت مخطئاً عندما ظننت أن نفسي تهرب من كومة الخيبات المترادفة بمسيرها هذا ظننت أني بعبوري هذا، سأعبر من فوق كل شيء أثقل كاهلي و لم أكن أعلم أني أهرب بجسدي لا بذاكرتي، يا أحبتي الذاكرة لن تموت و إن مات الجسد، ستلاحقنا لعنات الذاكرة حتى و إن افترشنا باطن الرمال مستقراً لنا.

كان الهواء بارداً في تلك الليلة كحال أي ليلة من ليالي ديسمبر في هذه البلاد ذات المزاج المتقلب، ديسمبر هنا لا يعني ليالي باردة بقدر ما يعني ذكريات حزينة تلسع الروح لشدة برودتها، ها نحن نهرب منها إلى هذا الليل، قد يكون هذا الكلام ما أراد أن يقوله هاشم، فنحن ندقق في ظلام السماء لا لجمالها أو لأي سبب قاله، إنما نهرب من شبح ما في هذا الظلام ظناً منا أنه لا يرانا، لم تدم سكينتنا طويلاً، قام الرجل الذي قدم بنا إلى هنا و قال هناك إشارة، يبدو أنه قد وصل صاحبنا الأخير، نهضنا جميعنا و تبعنا الرجل، لقد سرنا لمدة خمس دقائق لنتفاجئ بصوت أفزعنا من جهة اليمين كان يقول "أنا هنا" ذهبنا جميعاً إليه يتصدرنا من قادنا إلى هنا الذي قال لنا إنتظروا هنا حتى أعطيكم إشارة من المصباح كي تأتون، و هذا ما حصل و بعد فترة قصرة أشار لنا إشارة واحدة بالكاد رأتها أبصارنا، لنتوجه إليه مسرعين، بعد أن وصلنا وجد الرجل الذي كان ينتظرنا لوحده، أما صاحبنا فيبدو أنه قد غادر.

سألنا الرجل الذي كنا ننتظره، من أراد منكم مغادرة الشمال إلى تركيا ليقل ذلك فأنا سوف أساعده و اسعاري جيدة و سترضيكم، لم يبدي كل من هاشم و أيمن أي رغبة في ذلك و أكتفيا بالقول لا داعي لذلك الآن عندما نصل سيتبين لنا كل شيء و سنحدد خياراتنا، أما أنا

فقلت له: لا بأس، لكن كيف لي أن أعثر عليك.

أخرج ورقة من جيبه فيها رقم إتصال خاص به و قال لي : اتصل بي عندما تجهز و أنهيت كل امورك بعد وصولك، أخذت الورقة منه، و وضعتها في أحد جيوب حقيبتي.

بدأ بالسير و هو يقول اتبعوني لدينا مسير جيد و قد يكون متعب بالنسبة لكم.

لم نكن نعلم ما الذي يدور، لكني كنت مطمئن فبعد كل هذا المسير و هذه المعاناة، أيقنت بأننا لن نتعرض لعملية إحتيال أو خطف، و ما طمئنني أكثر هو أن هؤلاء الرجال هم نفسهم الذين ساعدوا عمي في الهروب من مدينة حلب، كنا نسير ببطئ و هذا ما تعمده الرجل و قد أعوز سببه لعلمه بأننا متعبون جداً، مضت ساعة كاملة على مسيرنا، و خلال مدة قصيرة تجاوزنا الغابة التي كنا نعوم بها و التي كنت أظن أن حدودها لن تقف إلا عند تركيا، كان أيمن يسير بسرعة أكثر منا جميعاً، كان يقف مع الرجل على نفس الخط أحياناً و يتجاوزه أحيانا، لقد أصبح السير صعباً قليلاً لأن الأرض التي كانت خلف الغابة كانت أرضاً زراعية رخوة قد تمت فلاحتها حديثاً، لقد أصبت بالتعب و الإنهاك لكني كنت أُجالد نفسي و اصبرها مادام الجميع لم يشعر بما أشعر، قد يكونوا أحسوا بذلك لكنهم يجالدون أنفسهم و يحملونها على الصبر و التحمل من أجل الخلاص، فأية لحظة نتوقف بها ما هي إلا زمنٌ قد ينقلب علينا، لم تمضي دقائق حتى سقط هاشم مرغماً على الأرض متمماً بكلام لم يسمعه أحد، توقف الرجل و لم نتوقف أنا و أيمن بل سقطنا سقوط الأموات على التراب،

لم يتبقى الكثير يا رفاق علينا أن نُعجل قليلاً فنحن أصلاً نسير ببطئ هذا ما قاله أيمن و هو يلهث، لم أكن أملك القدرة على الحديث، رد عليه هاشم بحدة "إن اردت السير فأكمل لوحدك لن نقف في طريقك، توقف الجميع عن الحديث عند هذه الكلمات، حتى سمعنا صوت الرجل و هو يقول لا بأس بالقليل من الراحة،

لكن هذه المرة الأخيرة التي سنتوقف بها، لم يتبقى الكثير كي نصل. لقد بلغ منا الإجهاد مبلغاً لم نعد نطيق تحمله، أكملنا مسيرنا و نحن نشد عُرى قِوانا على أسنان قلوبنا. لم يتبقى الكثير هذا ما كنت أحدث به نفسي و أنا أغوص في هذه الأرض حتى أخمص قلبي، لم يتبقى الكثير.....

لا أعلم كم الساعة الآن و لا أريد أن أعلم حتى أني لا أريد أن أعلم شيئاً عن هذه الحقبة و لا أريد إستذكار أي يوم قد عايشت به هذه المحنة، و ستمضي هذه الأيام دون أن تكون حتى ذكرى عابرة أو هشة، فأنا لا أملك الجرأة لأجعلها ذكرى، ستكون مجرد أضواء خافتة باهتة ميتة في جوف الظلمة كتلك التي أراها من بعيد، لقد كان الضوء الخافت خيط الأمل الوحيد و المتهالك، قاطع الرجل الذي يقودنا بصوته المبحوح خيالاتي عندما قال "إنهم بإنتظاركم"، تابعنا المسير نحوهم و كلما ظننا بأننا أصبحنا قريبين منهم خفت الضوء لينقطع الأمل ثم يعود بعودة ذلك الضوء، توقف الرجل فجأة و لا ندري ما السبب، نعم إنهم أمامنا، قال أحد المنتظرين لنا " لا تخافوا فهنا داعي للخوف أنتم في بلادكم"، أولم نكن نحن في بلادنا يا لنكبات الدهر ماذا حل بك يا بلادي،

هيا إصعدوا للسيارة هذا ما قاله الرجل كان معنا، لقد جلسنا نحن الثلاث في السيارة من الخلف و السائق ذو البزة العسكرية و أخر يلبس لباس مدني، و إنطلقت بنا السيارة ليعود الرجل الذي كان معنا أدراجه كسابقيه، سألنا السائق ذو البزة العسكرية "كيف كانت رحلتكم إلى هنا، هل كلكم مطلوبين للخدمة العسكرية، لا تخافوا فهنا لا يوجد خدمة عسكرية إلا لمن يريد الالتحاق طوعاً" أجابه هاشم و كنت أظنه ساخراً" لقد كانت رحلة ممتعة في براري بلادي لم يكن ينقصنا سوى البنادق لنقوم بجولة صيد" ضحك السائق و كذلك الرجل الذي بجانبه، في الوقت الذي كنت أنتظر هاشم لينظر إلي لأرسل له رسالة مشفرة من خلال تحديقي به أن لا يتعمق كثيراً بالحديث فنحن لم نأتي إلى هنا كي نواجه متاعب لا قِبل لنا بها،

لقد أدرك ما أريد دون أن ينظر إلي، لم تمضي خمسة عشر دقيقة حتى وصلنا لمنزل هو أشبه بالقلعة، ثم أُدخلنا إلى غرفة كبيرة و كأنها غرفة ضيافة و ليست غرفة لأمثالنا من الذين يأتون ليبقوا ساعات ثم يغادرون، بالفعل كان منزلاً من خلال الأطفال الذين كانوا يقدمون لنا الماء و الشاي و من ثم الطعام، طلبت من أحد الفتية المتواجدين في الغرفة وضع هاتفي على الشحن فأنا أعلم أن أمي لم تنم منذ مدة

دخل علينا رجل أربعيني و قال سأصوركم الآن بعدسة الفيديو و كل شخص أدير العدسة نحوه ينطق بإسمه، أخذ الفيديو للجميع ثم مضى، لكنه قبل أن يخرج من الباب قال "من منكم يوسف العلي" أجبته "أنا"، قال لي أمورك جاهزة و قد دفع عمك عنك و كذلك أوصاني بأن أرسلك مع رجل يخرج بك إلى تركيا و ترك معي كمية من النقود لك سأعطيك إياها بعد قليل، و فعلاً أتى الرجل مرة أخرى و اعطاني النقود و قال لي تجهز ستأخذك السيارة الآن إلى قرية حدودية، نظرت إلى هاشم و أيمن لأجدهم ينظرون إلي، قلت لهاشم و أنت ماذا تنتظر، قال أنتظر أن يتم دفع المبلغ كي استطيع الخروج إلى اقاربي في مدينة أعزاز و كانت إجابة أيمن كذلك لكن وجهته كانت مختلفة ذهبت لأخذ هاتفي و بعد أن قمت بتشغيله، وجدت عدة رسائل من عمي و أخي أحمد لكني لم أجد أية رسالة من أمي، إتصلتُ بها على الفور ليرن هاتفها عدة لحظات من ثم أجابت، لم أكن أسمع شيئاً سوى نحيب و بكاء و جملة أين ذهبت و تركتني، قلت لها :ما الذي حدث يا أمي ما بك، انا بخير و قد وصلت للشمال قبل قليل لا تبتئسي فأنا بخير لما البكاء.

قالت و هي تحاول أن تستجمع ما تبقى من قواها: إطمئن يا بني فكل شيء بخير، إنه الشوق فقط.

حاولت أن امازحها فقلت لها "هذا ثمن الاستغناء عني يا أمي" ضحكت ثم قالت "لقد اتصل بي عمك و أخبرني أنه أصبح في تركيا و طمئنني عنك و قد تكفل في كل شيء

نعم يا أمي و أنا سأنتقل للحدود بعد وقت قصير اطمئني هنا الأمور بخير لا احتاج سوى دعائك ، فأنا بأمس الحاجة له، سيكون طريقك ربيعاً يا بني، و تأكد بأني أدعو لك دائماً، أنهيت إتصالي مع أمي، ثم قلبت في رسائل عمي و أخي كانت كلها رسائل إطمئنان و رسالة من عمي فيها رقم لصديق له في مدينة حدودية ضمن الجانب التركي

لم يكن هناك شيء يستحق العناء في رسائل عمي فهو لم يظف شيئاً فوق الذي قاله الرجل و ما قالته أمي، دخل الرجل مرة أخرى و قال هل انتهيت السيارة تنتظرك، كنت متعباً و فوق كل هذا علي أن أتجهز، ودعت هاشم و أيمن وداعاً ممزوجاً بالأسى، "لقد كان الطريق قصيرا لكنه كان جميلاً يا هاشم رغم مرارته، أودعكم على آمل اللقاء بظروف أجمل و مكان مختلف، مكان نُدرك فيه أننا بشر و خُلقنا كي نعيش" لم ينطق أي منهم بأي شيء غير المألوف كان وداعهم عادياً و كأنهم إعتادوا على ذلك فهم لم يعودوا يعولون على أحد في البقاء، غادرت الغرفة و انا احمل حقيبتي نحو السيارة نفسها لأصعد في المقدمة مع الرجل ذو البزة العسكرية و معنا شاب آخر، يبدو أنه هارب كذلك من الجحيم إلى المجهول، كان الظلام مخيماً على كل شيء رغم انتشار أضوية المنازل بين الحين و الآخر على أرصفة الطريق، لا أعلم كم مضى من الوقت قبل أن أصحو على صوت السائق وهو يقول لي مشيراً للبناء الذي بجانب الباب المجاور للسائق "ستنامون الليلة في الطابق الثالث في الشقة التي على اليمين و غداً صباحا ستكملون رحلتكم، ترجلنا أنا و الشاب و صعدنا الدرج نريد الطابق الثالث و عند وصولنا طرقت الباب الذي يقع على يميني،

فتحت الباب امرأة قد تجاوزت الخمسين و قالت تفضلوا ثم اشارة لنا بإتجاه الغرفة التي سننام بها، دخلنا أنا و الشاب إلى تلك الغرفة، لم يكن هناك سوى مصباح صغير يعمل على زيت الكاز و سجادة تفترش الأرض و وسادة واحدة، وضعت حقيبتي تحت رأسي و نمت نوماً عميقاً، فأنا لست بحاجة أي شيء في هذه اللحظة سوى النوم بعمق، ايقظني صوت شاب لم يتجاوز العشرين من العمر في صباح اليوم التالي، " علينا أن نغادر يا شباب، السيارة تنتظركم في الأسفل" و أردف أيضاً بإمكانكم أخذ هذا الكيس ففيه بعض الطعام

نزلت أنا و الشاب الذي كان ب رفقتي و بالفعل كانت هناك سيارة صغيرة لها حوض من الخلف بإنتظارنا و بداخله خمسة شباب ، أشار لنا السائق كي نصعد من الخلف، تجاوزت السيارة الصغيرة الأبنية المترامية هناك و هناك لتمضي في طريق تلفه البساتين من كلا الجانبين، سألت أحد الفتية المتواجدين معي "ما اسم هذه المنطقة، قال لي" نحن في أطراف مدينة أعزاز"، كان الطقس غائماً و بارداً قليلاً، كنت أرى رايات كثيرة و بعض الوجوه الغريبة و منها ليس بالغريب في كل مسافة كنا نقطعها، لم أكن أعلم ماذا تمثل تلك الرايات ولمن ينتمي أصحابها و لم أرد أن أشغل نفسي في هذا الأمر و لا أريد أن أسأل أحدا ،توقفت السيارة فجأة و نزل السائق منها و قال للجميع تعالوا خلفي، إجتمع الجميع تحت شجرة كبيرة ضمن غابة صغيرة، لقد كانت هناك أعداد أخرى تنتظرنا غير التي كانت في السيارة، كنت أظنهم أكثر من خمسة عشر شاباً، قام أحد الرجال و الذي بدا من طريقة حديثه بأنه هو الذي سيقوم بعملية نقلنا للأرضي التركية، و بعد أن أنهى حديثه قال إتبعوني دون إصدار صوت، بدأ بالمشي لمدة عشر دقائق لنصل إلى حافة مساحة مكشوفة، ثم صاح بنا "اركضوا" ركض الجميع، و وصلنا لقناة ماء كبيرة مغلقة من كافة الاتجاهات، كان علينا أن نسير بداخلها

، كنت أقف خلف الرجل كي أكون قريباً من صوته و لظني أن مؤخرة القافلة ستكون بخطر دائم، وصلنا لأول القناة من الطرف الأخر، لقد كان الطرف الآخر مليء ب الأشجار، أمرنا بحني ظهورنا و خفض رؤوسنا و السير بسرعة، حتى وصلنا لعمق الغابة بحيث سيكون من الصعوبة رؤيتنا، لقد كان الرجل يتحدث بالهاتف مع شخص ما يراقب المكان عبر المنظار من مسافة بعيدة و هو من يأمره بالتقدم أو الرجوع

أشار الرجل أن أتبعوني، لقد مشينا لمسافة تقارب الثلاث كيلومترات، و اثناء عبورنا وصلنا لنقطة يمكنني وصفها بالمرتفعة لكن الأشجار التي تغطيها تمنع شموخها من الظهور، أثناء ذلك نظرت للخلف فوجدت أن الراية الحمراء ذات الهلال أصبحت بعيدة بمسافة أكثر من كيلَو متر، تجرأت و سألت الرجل هل أصبحنا في تركيا، قال لي "اطمئن لقد أصبحتم في تركيا لكن هناك مسافة ليست بالطويلة علينا أن نتخطاها كي نصل للسيارة التي ستنقلكم كل واحد إلى وجهته، لقد كنت مع أربع فتية معي في مكان أعلى من المكان الذي تتواجد به باقي المجموعة، مما أتاح لي النظر في وجوه الجميع ولو قليلا،

كُنا كقطيع ذئاب بائسة و ضائعة و مشردة لا تجد ملاذاً لها، لقد كان البؤس بادياً على وجوه الجميع، كُنا كأموات بُعثوا من قبورهم، جلست قليلاً أحدق في المدى البعيد بإتجاه الشرق، كنت أريد رؤية الجهة التي تأتيني منها نسمات من تركتهم خلفي.

لقد صنعت خيبتي بنفسي.... لا تستمع دائما لما تقوله لك أمك، لإن سقوطك في مكان بعيد عنها، لن يثبت لها أنك كنت على صواب و ستدفع الثمن لوحدك